



دہو چین

مصباحِ فکر

پیشہ ورانہ رسالہ نیونسکو

پیشہ ورانہ رسالہ نیونسکو



تصدر عن مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

١ شارع طلعت حرب - القاهرة

المجلد الثالث عشر

السنة الخامسة

١٩٧١

مقالات هذا المجلد

مقدمة

٢ مقدمة

٧ في حوض البحر الأبيض المتوسط

بقلم : فرنسيسكو جابريلى

ترجمة : د. شكرى عياد

١٣ السياسة العلمية وأساطيرها

بقلم : جين جاك سالون

ترجمة : د. محمد عبد الفتاح القصاص

٣٩ المرأة المهذبة

بقلم : راول ارجمان

ترجمة : د. زكريا ابراهيم

٦٥ العمل والعقائد والثورة

انتقده على الزمان

بقلم : فريد كالدوين

ترجمة : د. عثمان امين

٨٧ عن الجزيئات الحيوية الى علم النفس

بقلم : جول دوشين

ترجمة : زكريا فهمي



دبوجين

مصباح الفكر

رئيس التحرير

عبد المنعم الصاوي

هيئة التحرير

د. مصطفى كمال طلبة

د. محمود الشذيطي

عثمان نوييه

محمود فؤاد عمران

الإشراف الفني

عبد السلام الشريف

... الفن ... والعلم ... والجواهر

قبل اختراع الطبعة ، كانت مهمة نشر الفكرة شاقة ، فقد كان نسخ المؤلفات باليد ، هو الوسيلة الوحيدة القادرة على النشر ، وكان للرواة وحفظة المأثورات والقصائد الشعرية مكانة مرموقة في المجتمع ، لأنهم كانوا يتقلون بين أروقة القصور ومجالس الأباطرة والحكام ، وندوات السمر ، بأرق ما أنتجه الشعراء من الشعر ، وامتنع ما زخرت به الكتب من الملح ، وارشق ما خللته القرائح من الملاحظات .

غير أن نسخ المؤلفات لم يكن مهمة سهلة ، ولا ميسرة لكل الناس ، فقد كانت تحتاج الى جهد ووقت ومال ، ولم يكن يقدر على ذلك الا الخاصة ، أو المدارس الفكرية التي انتشرت في المجتمع القديم .

لكن اختراع الطبعة ، وتطور آلات الطباعة ، يسر للمؤلفات ان تطبع ملايين النسخ في أيام ، وعلى ورق مصقول ، وبحروف ظاهرة ، بل مصحوبة بالصور والرسم في بعض الأحيان .

ولم تعد المؤلفات تعتمد على النسخ ولا الرواية ، لتجد طريقها الى الناس .

العام نقل الفن إلى ملايين الناس لكن "روح الفنان" لا تزال عصية على الوسائل العامة

بقلم • عبد المنعم الصاوي

وصاحب تطور الطباعة تطور هائل في وسائل التوزيع ، فانتشرت المطبوعات في كل مكان ، حتى في القرى الصغيرة النائية •

وإذا كانت المطبعة قد نجحت في أن تنقل المؤلفات من النسخ الأصلية إلى ملايين القراء ، فإن الوسائل الأخرى التي ساهمت في نقل الإنتاج الفني ، لم تستطع حتى الآن أن تنقل الفن ، بنفس الدقة ، التي استطاعتها المطبعة •

فالفن التشكيلي عندما ينقل إلى الناس ، ينقل عن طريق تصويروه وطبعه ، وتوزيعه في المتاحف والمكتبات •

وقد شهدت السنوات الأخيرة من هذا القرن ، تطورات هائلة في نقل الأعمال الفنية لكبار الفنانين عن طريق تصديرها وتوزيعها •

لكن هل تستطيع الكاميرا أن تنقل لوحة لرافائيل مثلا بنفس الدقة ، وب نفس التفصيلات ؟

هل تستطيع الكاميرا أن تنقل ما في اللوحة من الوان ؟

فإن استطاعت ، فهل تعمق ما في اللوحة من ابعاد ، وظلال ، وتأثيرات ،
تختلف باختلاف زوايا الرؤية ، ودرجة الاضاءة ، وسكان العرض ؟

فإن استطاعت ذلك كله ، فهل الكاميرا قادرة على أن تعطي « روح الفنان »
التي يكون قد أضفاها على عمله ؟ الحزن أو البهجة • التلاؤل والتشاؤم • القلق أو
الهدوء النفسى الأمن المستقر ؟

إن الكاميرا لاتزال عاجزة عن اعطاء ذلك كله ، والخطر الذى يغشاه المفكرون
ورجال الفنون ، يكمن فى أن نشر الفن ، يفقر عناصره الاساسية ، قد يطبع مزاج
الناس بطابع لايتلق مع روح الفن ، ودقة الاحساس ، والقدرة على كشف التفصيلات،
والوقوف على دلالاتها النفسية والفنية •

وعندما تنتشر بين الناس ، ملايين الصور للأعمال الفنية ، يفقر هلم العناصر ،
التي تميزها وتقيم شخصيتهم ، فقد يؤدى ذلك الى هبوط مستوى اللوق عند الجماهير •

والخطر أن الانبجاع الفني الذى تتركه هلم الصور ، قد تجرد للرجال والنساء
والاطفال ، حيويا خفية لاتتجاوزها أخيلتهم عن الانتاج الفني الاصيل ، فلا يتصورون
الفن فى حقيقته ، الا فى اطار ما تجود الكاميرا عليهم به •

ومن يردى ، قد يرى بعضهم الأعمال الاصلية فى المتاحف التى تعرض فيها ،
فينكرها ، لأن حدود فهمه للعمل الفني ، قد استبعدتها الكاميرا •

فالدوق العام إذن ، قد يسقط ضحية هذا النوع من نقل الأعمال الفنية ذات
القيم النادرة •

لكن هل معنى هذا أن نسقط من الاعتبار ما استطاعته الكاميرا ووسائل النشر
الفنى ، من تطور اللوق العام وحمل الملايين على اقتناء الأعمال الفنية ؟

إن مجرد الاقتناء فى ذاته ، له دلالاته على التطور ، وإيا كان النقص فى صور
الأعمال الفنية ، فإن انتشارها فى ملايين البيوت ، ووضعها على جدران المنازل ، لتقع

عليها ميون الإبناء والبنات والزوار ، بدلا من أن تقع عيونهم على جدران خالية صماء .
هذا وحده تطور يستحق التشجيع .

وسياتى يوم قريب ، نرى فيه الوسائل العلمية قد حققت ما نرجوه من تحسين
وسائلها في نقل الأعمال الفنية واشاعتها بين الناس .

لكن علينا أن نعترف أن هذه الوسائل لاتزال حتى الآن ناقصة عن نقل « روح
الفنان » مع ما تنقله من خطوط والوان وظلال ، بمختلف الاحجام .

ان أعمالا فنية أخرى تتعرض لمثل ما تتعرض له الفنون التشكيلية عندما تنقل
بالمصورة .

للسرقيات مثلا عندما تنقل على شاشة التلفزيون ، والابويرات عندما تنقل
بالراديو ، والموسيقى عندما تسجل على اسطوانات .

كل هذه الاعمال تنقل بهذه الوسائل ، فتصل الى الناس ، حيث يكونون ، في أى
وقت يشاءون .

لكن هل يتم النقل بنفس القدر من الدقة التى تؤدي بها هذه الفنون في أماكنها
الأصلية ؟

ان هذه الوسائل لاتزال عاجزة عن نقل « روح الفنان » على موجات الاثير او
على اشربة التسجيل او على الاسطوانات .

لكنها مع هذا ضرورية ولازمة لنشر الفنون .

والذين يشفقون على اللوق العام ، من أن يحبس في اطار من عجز هذه الوسائل
عن النقل الفنى اللازم ، عليهم أن يدركوا أن التطور الاجتماعى فى العالم يرتب للناس
حقولا فى الاستمتاع بمباهج الحياة ومتعها ، وفى التعرف على الوان الفن المختلفة ،
بالوسائل المتاحة .

وسيجد القارىء الى جوار المقالات القيمة التى يضمها هذا العدد من مجلة
« ديوجين » ، مناقشة أوسع لموضوع النقل الفنى ، فى مقال ملخص للاستاذ راسول
برجمان نقله الى العربية الأستاذ الدكتور زكريا ابراهيم .

وعلى كل حال فإن تكن الوسائل الفنية لاتزال - كما أو نوعا - غير كافية ،
فإن العلم الذى استطاع أن يحقق سيادة الانسان على الكون ، والذى صعد بالانسان
الى سطح القمر ، أن يعجز عن تحقيق أمل الانسان فى نقل الفن الى الناس على وجه
اكمل .

والله يوفق العلماء الى تحقيق الغاية ، والوصول الى القصد .

عبد المنعم الصاوى



المعارف والعلوم

في حوض البحر الأبيض المتوسط



بقلم

فرنسيسكو جابرييلي

ترجمة

د. شكرى عياد

المقال في كلمات

البحر الأبيض المتوسط ملتقى الشرق بمغربه الزاهر ، والغرب
بمخاضه اللامع ، على شواطئه نشأت أقدم مدنيات العالم • ومن
مهد الحضارة انتشرت الشعلة الوضاءة شرقا الى بلاد ما بين النهرين ،
وشمالا الى الاغريق ثم الى روما • ولقد ظل البحر الأبيض كذلك في
الصور الوسطى مصدرا الاشعاع الذي يسد النظام الحضاري في
أوروبا • ثم اذا بالاسلام ياتي بنور سامع جديد ، ولذا بالاوربيين
يرتشفون من مناهل علم العرب في صقلية ، وفي الاندلس حيث
ازدهرت قرطبة وطليلة • لقد تلقوا من العرب ما اقاموا عليه
نهضتهم الرائعة الحديثة ، وهام اولاء علماء بيزنطة يحملون
ذخيرتهم العلمية الى مختلف انحاء أوروبا فيوقظونها من سباتها
العميق ، لتبدأ نهضة تتقدم رويدا رويدا حتى تبلغ كوجها في
عصر العلم الحديث •

وينوه الكاتب في مقاله بفضل ثقافة البحر المتوسط في العصر
القديم والصور الوسطى ، ووجدها في كل من المصريين ، مشيخا

بالثقافة الإسلامية في العصر العباسي معتبرا إياها المن هاتركته
للغلب ، ومشيدا كذلك بالدور الثقافي الذي لعبته مصر الفاطمية
في نشر ثقافة البحر المتوسط حينما كانت مصر مركزا من مراكز
الاشعاع العلمي والفني . ويشيد الكاتب كذلك الى امتزاج الثقافات
المصرية والافريقية والعربية واللاتينية امتزاجا اخرج منها وليسدا
ثقافيا مرت عليه أحداث الزمان الجسام دون أن تنده ، أو تؤثر في
كيانه ، أو تنقص من بهائه .

ليصدقنا العالم الدكتور طه حسين كتاب ظهر منذ نحو ثلاثين عاما يعنون
« مستقبل الثقافة في مصر » قدم فيه فكرة خلاصة يصعب قبولها جملة كما يصعب
رفضها جملة : فكرة العلاقة بين الثقافة والعلم والأدب في بلاده وبين الغرب ، أو
بعبارة أدق : بينها وبين ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط التي التقى فيها الشرق
بالغرب . فعنده أن مصر القديمة ومصر الافريقية وحتى مصر العربية والمسلمة كلها
أسهمت في هذه الثقافة التي يمكننا أن نسميها « بثقافة البحر المتوسط » ولم تكن
مرتبطة بالشرق وحسب ، كما طاب للعلم التقليدي أن يصفها . ولا شك أن هذه
الالتفاتة المفاجئة نحو الغرب مقبولة اذا كنا نتحدث عن العصر الهليني ، أما اذا كان
الحديث عن مصر الفرعونية أو مصر الفاطمية أو مصر المملوكية . قلنا لانستطيع أن
نغمض أعيننا عن جميع جوانب الارتباط بينها وبين الشرق الأوسط : بينها وبين بلاد
ما بين النهرين على عهد البابليين ، وبينها وبين بلاد العرب على عهد النبي محمد ،
وبينها وبين فارس على عهد العباسيين . ولكن ميزة هذا الكتاب — مميزة معظم كتب
طه حسين — هي تركيزه ، ولو بشيء من الصلابة والمبالغة ، على هذه الحقيقة التي
لا تفكر : أعني وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط في العصر القديم بل في العصر
الوسيطة أيضا ، وإن كان هذا مناقضا لأراء هنري بيرين ، وحدة تتجاوز الاختلاف في
العقيدة الدينية والولاء السياسي ، والاختلاف في اللغة والعادات ، لغمس أصباق
الفكر الانساني ، أو قل لغمس مشكلاته العقلية ولغمس تراثه الروحي . وهذه الصفة
المشتركة (أو السمة الجامعة) تظهر بجلء في تقدير المعرفة وفي الدرس وفي تعهد
المعرفة على مدى القرون أكثر مما تظهر في الأدب والفن .

في البدء ، ولدت المعرفة في الشرق ، في أرض النهرين ، بل وفيما وراء ذلك
شرقا . هذه حقيقة لا ريب فيها . ولكنها بعد ذلك أثبتت طرقا لا يزال من الصعب
تحديد هاء بدقة ، لتغيش على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث مرت انتعاش

وازدهار لامثيل لهما في بلاد اليونان . ومع أن اليونان الغالبة مدت شعلتها نحو الغرب عن طريق روما فقد ردت معظم دينها الى الشرق فيما بعد ، بما قدمت اليه من علوم الهلينية وفلسفتها ، حيث استطاع الشرق أن يتعرف جانباً من تراثه ، وقد انعمته واغنته عبقرية الهلنيين . وهذا القسم من التراث الكلاسيكي كما هو معروف هو أهم ما أحيتته الثقافة الإسلامية في العصر العباسي ، وهو أثمن ما تركته للخلف . ومن ثم عاد التيار من فارس وبلاد ما بين النهرين مقبلاً مجراًه - بواسطة السريان أولاً ثم العرب مسيحيين ومسلمين فيما بعد - ليعيش ثانية نحو مياه ذلك البحر الأبيض المتوسط الذي ساعد على ازدهاره من قبل .

وتشهد الحقبة الأخيرة من الصور الوسطى مصدرين لهذا التراث اليوناني الشرقي يبتنيان على طرفي البحر الأبيض المتوسط : بيزنطة والأندلس وكانت الأخيرة تطلب من بيزنطة - بالتحديد - تصوص المعرفة القديمة وآثارها (ويكفي أن نذكر قصة كتاب ديسفوريديس في صورتيه اليونانية والعربية في القرن العاشر) ، وتجمع في أقصى الغرب من أوروبا كنوز المخطوطات التي بهرت أوروبا كلها من بعد بنور جديد . كذلك لا يسهل المرء أن يغفل الدور الذي لعبته مصر الفاطمية - في القرون التي سبقت القرن الحادي عشر - بثقافتها المتنوعة العناصر ، الخارجة على العقائد الشائعة (ومما يؤسف له أنها كادت تحي فيما بعد برد الفعل السني في عهد الأيوبيين والمماليك) ، وقد استعارت الكثير من تراث العصر القديم المتأخر في العلوم، الصحيح منها والفساد . هذه الثقافة وهذه المعرفة الفاطمية - التي تجمع اشتباهاً ويعاد بحثها في الوقت الحاضر - قد لعبت ولا شك دوراً بارزاً في نشر معرفة البحر المتوسط (إلى اليونانية الهلينية العربية) . وأن في الرياضيين والأطباء الذين خلفوا علماء مصر العظام ، ويمثلهم أين الهيثم فروع تمثيل (وهو فارسي المولد عاش وعمل في البيئية الفاطمية) لدليلاً على قيمة هذا المركز من مراكز الإشعاع العلمي والفني . فهذا ما كانته مصر على عهد خلفائها غير السنيين ، وهو أكثر عهود الإسلام في البحر الأبيض المتوسط إشراقاً .

وسرعان ما تجلى للغرب اللاتيني مبلغ ثراء هذه المعرفة الإسلامية (من طب وفلك ونجوم ورياضة) التي ألهمت التراث القديم لنة القرآن ولعمدته ونمته في هذه اللغة . وكان أول رواد هذا الاتصال وأبرزهم قسطنطين الأفرقي ، وهو مسلم مغربي من رجال القرن الحادي عشر ، قضى آخر أيام حياته راهباً بندقية في دير مونتكاسينو . فيفضل ذلك الرجل الفاضل ذي الديانتين واللغتين ، ظهر الطب العربي لأول مرة في إيطاليا ، وقد استعرك بعض ماغات العلم اليوناني . ولابد من الربط بين عمله الذي تم في كيبانيا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبين ازدهار المدرسة الطبية في سالرنو ، التي بلغت أوجها في هذا القرن نفسه وطابقت هذا العلم العربي بما تلقته من التراث اليوناني مباشرة عن طريق بيزنطة

والسنن اللاتيني الذي لم ينقطع طوال العصور الوسطى المتأخرة . وإذا فتحنا جانباً مشكلة صحة نسبة كتابات قسطنطين إليه (والحق أنه ظلم حين اعتبر سارقاً لأحياء عنه) فيجب أن يحسب له أنه أول من نشر أنباء السنن العلمى الإسلامى العظيم إلى قلب البحر الأبيض والمالم المسيحى ، وفى الوقت نفسه كان هذا السنن يمتد من غارس إلى الغرب وإسبانيا . وهناك بالضبط أتبع لما كان عملاً فردياً قام به هذا العالم وقبله من تلاميذه بين منتكاسينو وسالارنو أن يفدو فى القرن الثانى عشر ذلك العمل الجماعى الرائع الذى قامت به مدرسة طليطلة ، فكشفت للعالم المسيحى عن كنوز العلم والفلسفة اليونانيتين العربيتين .

وهكذا كان ما تم فى عاصمة القوط الغربيين القديمة على ضفاف نهر تاجة ، أثر إعادة الفونسو السادس لها إلى المسيحية بعد ثلاثة قرون ونصف القرن من الحكم الإسلامى ، كان صفحة من ألح صفحات تاريخ أوروبا الثقافى بل تاريخ البحر الأبيض كله ، لأن الأمر كان - على التحديد - أمر تراث متوسطى كلاسى وشرقى فى الوقت ذاته . وإذا كان من الممكن أن تبدأ منذ الآن تلك الفكرة القديمة عن « مدرسة » أو « كلية » للمترجمين فى طليطلة ، نظماً كبير الأساقفة دون رايموند ، فانه من الثابت على كل حال أن جماعة من العلماء من جميع أرجاء أوروبا قد واصلوا عملهم هناك بحرية أثناء القرن الثانى عشر ، ميسرين للغرب بترجماتهم علم العرب وفلسفتهم ، ومتتبعين إياه أحياناً حتى نماذج اليونانية . وإن أسماء أدلارد البائى ، وهرمان جلمان ، ودوميتكو جند يسالفى ، وجون الأشبيللى ، ومارك الطليطلى ، وكثير غيرهم ، لتؤلف لائحة شرف يتصدرها ذلك الاسم اللامع ، اسم جيراردود أكريمونا العظيم ، وهو مواطن من لومبارديا ساقه شغفه بالتراث القديم حتى طليطلة واستطاع خلال عشرات السنن من الدراسة الجادة والعمل الدؤوب أن يروى طماء الشخصى إلى المعرفة ويعد الأجيال التالية بروائع بطليموس وابن سينا ، وأقليدس وجالينوس ، والكندى والفرغانى وكثير غيرهم من متقدمى العلماء والفلاسفة فى الشرق فى القرون الوسطى ، الذين لم يعودوا بعد مجرد أسماء عند العالم الغربى بل أصبحوا تصوصاً وأفكاراً ومذاهب درستها عصورنا الوسطى - بدورها - فى شغف وأقبال .

وفلسفة القرن الثالث عشر وعامومه - وهو العصر الذى استوى فيه فكر دانتى وعلمه - مشبعان بهذا التراث الغربى . فالوسطط ليس عربى الأصل فى جانب منه (يجب ألا ننسى أن بيزنطة أوجلت دائماً اتصالاً مباشراً مع الأصول اليونانية) ، وأكبر شريحة عربى ، أى ابن رشد الذى كان القديس توما يناقشه وهو مع ذلك يتقبل كثيراً من نظراته وطرائف تفكيره ، وقد ترددت أصداؤه هذا النصر للعلم العربى فى الغرب اللاتينى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وأدت إلى رد فعل من قبل متراكم باسم اللاتينية والمحافظة الدينية ، وقد بدا له أن كليهما مهددان . ولكن هذا ليس مجال تتبع مصير العلم الشرقى والفلسفة الشرقية حتى عصر النهضة الأوروبية ،

حين أخلى الأول مكانه للعلم الغربى التجريبي الجديد ، وبقيت الأخرى حية فى شكل
الرشدية اللاتينية حتى فجر العصر الحديث •

ولكن لنعد الى المصور الوسطى وإلى ما تمتعت به من ازدهار رائع وتداول
عجيب للثروة الثقافية بعد سنة ألف ، فيجب ألا ننسى موطناً آخر ومعللاً لهذه
التبادلات عظم أمره فى صقلية فى عصرها الذهبى سياسياً واجتماعياً وثقافياً ويكفى
(لئلا نردد أشياء معروفة) أن نتذكر تفسير الثقافات الثلاث - اليونانية واللاتينية
والعربية - الذى ساد فى صقلية أثناء العصر النورماندى ، والثمار العملية التى اكتتها
هذه الحركة التوفيقية • فهذا هو عصر الترجمات الصقلية عن اليونانية والعربية ،
عندما ترجم أمير البحر بوجيتيو « مناظر » بطلينوس الى اللاتينية عن الأصل العربى،
وترجم هنرى أرسططس « فيثون » أفلاطون عن اليونانية مباشرة ، وعندما جمع
الإدريسى، الشريف الراكشى، مادة جغرافية فى ظل مرش روجر ، وقدم لها بمقدمة
التي فيها ثناء خالصاً على الملك العالم غير المسلم ، ناسياً أمام العلم كل اختلاف فى
العقيدة والثقافة • ويمتد هذا العالم نصف العربى من آل هو تغيل الى آل هو
هينشتون ، فى الجو الثقافى الذى سنعرفه منذ الآن خيراً مما نعرف بيئة طليطلة
فى الوقت الحاضر ، وذلك بفضل جهود أمارى وهاسكنس والمرحوم دى ستيفانو ومس
جاميسون • ولاشك أن دراسة بيئة طليطلة - دراسة مستوية - أشق لكثرة
الشخصيات هناك وللتنوع الفرير فى المادة العلمية • وأخيراً لنلق نظرة شاملة على
رحلة العلوم والثقافات هذه حول ذلك البحر الذى كان الرومان يسمونه فخورين
«بحرنا» وهى تسمية نستطيع أن نقبلها دون مغرور استعمارى إذا فكرنا فى دولة
الروح غير المادية • فعندما انطلقت شعلة الثقافة القديمة على هذا البحر بقيت تقاطع من
الضوء هناك أوشتت من جديد لتلمع كالمنازل فى ظلام المصور الوسطى • فكانت ثمة
ببزنطة أولاً ، حلقة تربط ربطاً أكثر مباشرة بين هذا العالم الجديد كله وبين العالم
القديم الذى زال ، ثم كانت دمشق القاهرة (منذ أختفى نور الاسكندرية اختفاء
مؤسفاً) وهما مركزان من مراكز نهضة الاسلام فى البحر المتوسط وفى أقصى الغرب
كأنت قرطبة ، اسكندرية الغرب ، فخورة بالشعلة التى نلم أنها أضاءتها من جديد،
ومن قرطبة الى طليطلة ، ومن طليطلة الى إشبيلية القوسو المعاصر ، الى باريس ، الى
بولونيا ، الى فلورنسا دانتي ، الى بادوا بترارك وجيويتو والأساتذة الرشدين • هذه
هى طرق الفكر فى الألف عام التى تكون المصور الوسطى ، فوق أغوال الحرب
وأنهار الدم • وإذا كنا نحس مثل هذه الفطائع فى أنفسنا ، وإذا كنا نعيش تحت
سيف المخاوف الرهيبة ، فلنستمد بعض الشجاعة والأمل من هذا المثال الذى يظهر
لنا كيف تسلم ثروة الروح التى لا تفنى ، وكيف تملو على الطوفان لتمتد الى أجيال
أخسرى •

الكتاب : فرنسيسكو جابريلي

- استاذ اللغة العربية والادب العربي في جامعة روما .
- كرس نفسه لدعوة الادب العربي والفلسف ، مركزا على ما بهما من قيم لنية ، كما دوس التفرغ السياسى للاسلام .
- له مؤلفات عديدة منها المدينة الاسلامية (عام ١٩٤٧)، والادب العربي (الذى صدر عام ١٩٥٢)

المترجم : الدكتور شبكرى محمد هبيل

- تخرج في كلية الآداب سنة ١٩٤٠ .
- حصل على درجة الدكتوراه في الآداب سنة ١٩٥٢ .
- يشغل الان كرس استاذ الادب العربي الحديث في كلية الآداب بجامعة القاهرة .
- له عدة مؤلفات في الادب والنقد ، كما نقل الى العربية مديدا من المؤلفات الهامة .

بقلم
جين جاك سالومون

ترجمة
د. محمد عبد الفلاح الفصاح

السياسة العالمية وأساطيرها

المقال في كلمات

العلمانية والأنشطة الفكرية هما سمتا مصرنا الحديث ، عصر العلم الذي ذهب بالسمو والكهانة والأوهام والأساطير . وسيطرة العلم في مصرنا لا تحتاج إلى دليل . والذي يأخذ الكاتب على اهتمام السلطات السياسية بتقدم المعرفة أنه ليس اهتماما بالمعرفة ذاتها ، إنما هو اهتمام هدفه ترجمة هذا التقدم إلى منافع مادية ، كما أن المشاريع العلمية ينظر إليها من ناحية اقتصادية تتمثل فيما تقوم به من تحقيق لأهداف المجتمع . ويتساءل الكاتب : هل في مقدورنا تخطيط العلم ؟ وهو يجيب على ذلك سائرا بأن المسلم يخطط بواسطة جهات خارجة عن العلم ، وإن البحث العلمي الذي هو أحد أبعاد التخطيط يتوخى اعتبارات تربط بتطبيقات العلم لا بالعلم ذاته ، فالتخطيط صادرة تربط بربسائط وثيقة بالعالم منه . ويتساءل الكاتب كذلك في مقالة عملية الترشييد التي تفهم كون الأهداف المقصودة هي الفصل الإلهاف ، متهما كثيرا من

الاهداف بأنها اهداف غير واضحة تمليها نوازع غير عقلية . ويحمل الكتاب ايضا على نظرية التوجيه والاحتتمية فى مجال الكشف العلمية ، قائلا ان المصادفات كثيرا ما تلعب دورا كبيرا فى الاكتشافات العلمية كما حدث فى اكتشاف البنسلين . وقد ترسم الاهداف ولكن فرصة التوصل اليها والوقت اللازم لتحقيقها لا يمكن القطع بهما . اما من جهة التنبؤ التكنولوجى فيرى الكتاب فيه نوعا من المرافة وان محترفيه لا يزيدون عن كونهم يحسسون باتجاه الاحداث وان اجاباتهم عن الاسئلة التى تقدم لهم مهما صيغت فى مصطلحات رياضية وعولجت معالجة حسابية لا تزيد عن كونها مجرد آراء ، وان هؤلاء التنبئين لم يثبت صدقهم حتى فى المستوى الاول من حسسهم وهو التنبؤ الاستطلاعى الا باعتباره اداة لوضع البرامج . اما فى مجال التنبؤ التكنولوجى الميالى ، فان التنبؤ يظهر يوضح فى صورة العراف . ويرى الكتاب انه يجب الا يسمح بالحس والتخمين فيما يتعلق بالنهج العلمى ، وان الحس والتخمين لا يفتقان صفتها بمجرد البعد عن التجليات الالهامية والاعتماد على أدوات رياضية .

لكل جيل قدر مقسوم ، ولو أردنا أن نصف عناصر القدر المقسوم لجيلنا قلنا : العقلانية ، والانصراف الى النشاطات الفكرية ، والتحرر من أسر السحر والأوهام فيما يتعلق بأمور العالم (١) . ذلك لأن نجاح العلم كوسيلة للتنبؤ أى البصر بالمستقبل ذهب بسحر الرقية ، فلم تعد هناك صورة كاملة للعالم يمكن أن تبرزها المعرفة العقلية . ولم يعد الجهد العلمى طريقا ملوكيا الى عرش الآلهة ، ولا الى معرفة سر العالم ولا الى استكناه جوهر الطبيعة المخفى وراء أستار المظاهر . مضى سحر القوى الفاعلة التى يسمى الإنسان الى كشف نقابها أو الى استحضارها ، مضى هذا السحر الى غير رجة نتيجة النماء والنجاح الذى لقيته الأدوات التقنية الخالصة فى السيطرة على الظواهر الطبيعية ، وهى أدوات تتصف بالنهج الموضوعى وأنسنت المحايد . فإذا كان العلم قد حرم العالم من جوهامه فان مرد ذلك الى أن العلم يقدم اجابات بناءة للأسئلة التى تطرح عليه .

Max Weber, La vocation du Savant, in Le Savant et le Politique, Paris, Plon, 1968, pp. 105-108.

(١) انظر

ولكن العلم ذاته يصبح طرفا في عملية الذهاب بالسحر . فمن وسأله
الارتباط الذي لا تفكك منه بالقياسات التي تمهد السبيل الى الإدراك العنلى للطبيعة
واعتبار الطبيعة مادة يمكن قياسها والتنبؤ بسلوكها ويمكن كذلك ضبطها وتنظيمها .
وكما يستهدف العمل العلمى اتقاص مدى المجهول والمشكوك فيه ، فان على العمل
العلمى ذاته أن يرضخ للقياسات الرياضية التى تستهدف اتقاص مدى التشكك
فى أعمال البحوث وإيجاد الترابط بين الاتجاهات المختلفة . ذهب الزمان الذى كان
يمكن فيه لرجل مثل بنيامين فرانكلين أن يلجأ الى شهود مستربين فى امكان طيران
البالونات ليسألهم : « ما هى فائدة هذا الوليد الجديد ؟ » لم يعد على العالم أن
يبرر مسعاه وبحوثه ، ذلك لأن العلم قد أثبت فائدته وجدواه ، وحقق نتائج
ملموسة . ولعله قد أثبت امورا بالغة الوفرة ، بحيث أصبحت النظرة لكل وليد
جديد تتحدد فى ضوء النفع الانتاجى الذى سيحققه عندما يستوى فى مراتب
الرجال ، وأصبح الدافع الى رعاية الوليد والحطب عليه مايعقد عليه من آمال العائد
السريع الذى ينتج عنه فى صورة نتائج ملموسة .

وإذا كان للسلطات السياسية اهتمام بالمعرفة ومصادرها وأصولها، فإنه اهتمام
ذو مدى مقدور . ان ماتفقه الدولة من مال فى مجال زيادة القوة العاملة ذات المهارة
والخبرة ، وفى زيادة امكانيات البحث وأجهزته ، لا يرجع أساسا الى اهتمامنا بتقدم
المعرفة لذاتها إنما الى ترجمة هذا التقدم الى منافع مادية على شكل أدوات جديدة .
ذات قوة أعظم وقدرة على العمل أكثر . أى أن السلطة السياسية تضع أمام
أهنيها الحاصلة النهائية لعملية البحث ، أى المرحلة التى يمكن فيها تطبيق الاكتشاف
أو الابتكار ، أى التى يتحول فيها الى اختراع جديد ويصبح حقيقة واقعة فى صورة
نواتج ملموسة أو وسائل انتاجية مستحدثة تضاف الى ترسانة وسائل الانتاج
أو أدوات التدمير . فالشروع العلمى جزء لا يتجزأ من منهج التفكير والتدبير الذى
يتصور أن أهداف المجتمع يمكن أن يعبر عنها فى لغة الاقتصاد على أسس امكانيات
الموارد التى تتاح ليحقق بها المجتمع هذه الأهداف . الكفاءة والانتاجية العالية والحدود
القصوى هى العناصر التى ينبغى على البحث العلمى أن يجد لنفسه فى إطارها
الوضع المقبول . فإذا بلغت الإمكانيات المتاحة للبحث العلمى والتطوير ما يساوى ٢٪
من جملة قيمة الانتاج القومى أو مايزيد على تلك النسبة (تزيد قيمة الانفاق العلمى
على ٣٪ من قيمة الانتاج القومى فى الولايات الأمريكية والاقتصاد السوفيتى) فإنه
يتضح أن النهوض بكل مشروع من مشروعات البحث العلمى يقتضى مشاركة فى
اقراره ، فلم يعد العالم مسئولا أمام شيوخه فقط ، ولا أمام الصديق العلمى وحده ،
إنما أصبح عليه كذلك أن يقف بين يدى محكمة المجتمع ، لأن المجتمع يحدد قيمة
الاعتماد المخصص لكل مشروع علمى ، ويراقب انفاق هذه الاعتمادات . أى أن نظام
البحث العلمى لا يزيد على كونه جهازا فرميا فى شبكة العلاقات الاقتصادية التى تتكم

فيما الدولة وتمارس عليها السلطة . ولو أن نواتج البحث العلمى لا ينطبق عليها تعريف « السلع والخدمات » على نحو ما يتفق مع مصطلحات الحسابات القومية ، فإن الاعتمادات التى تنفق على البحث العلمى هى أساسا جزء من الحسابات العامة (٦) .

والتفكير العقلى فى عمومه ، وفى تناوله لقضية العلم والمجتمع ، يود لو تصور أن السلطات السياسية تتناول شئون العلم بطريقة علمية ، وأن العلم بدوره يتحكم فى الوسائل التى تدعم بها المعرفة ، ذلك لأن تقدم المعرفة وتطورها أصبح يعتمد على ما تهينه الدولة من امكانيات ، ولأن الأفعال التقنية الرائدة تتحكم فى الوسائل والأهداف التى تصبح بها محاولات الاستكشاف جزءا من النسيج الوطنى المشترك . فإن كان استهداف الإدارة الرشيقة هو واحد من سمات المجتمعات الحديثة ، فإنه من الطبيعى كذلك أن يكون هذا الهدف المصق بنظلم اجتماعى يقف رجاله انفسهم وقيمهم ومؤسستهم على التفكير العقلى الراشد بحكم طبيعة العلم

ولكن السياسة العلمية لا تخلق إلا ما يشبه الأساطير عندما يختلط الأمر بين العرض الفنى للمعرفة وبين طالع الإنسان للقوة ، فالتناول العلمى فى مجموعه لا يجعل التناول السياسى للعلم أكثر رشدا من أى تناول سياسى آخر . أى أساطير ترتبط بالمذاهب التكنوقراطية فى الإدارة . من الاتجاهات الرئيسية التى تتكرر كثيرا فى مناقشات السياسة العلمية - الكلام عن التخطيط ، والتوقعات ، وأسس الاختيار وتعدد الأولويات - وهى أمور قد يبدو منها أن الرغبة فى الترشيح - وهى من سمات الحكومة فى المجتمعات الحديثة - تعتمد فى تحقيقها على استيعاب المعرفة والتقنيات .

ليس الأمر كذلك ، كما يدرك ماركوس (٧) ، فالتصار التفكير الإيجابى فى تلك الحالة يجعل التأييد العقلى غير عقلى ، وليس فى ذلك قلب للتفكير العقلى الى ضده إنما الأمر هنا يحتاج الى تفكير عقلى مستكمل يكون متساحا أو قادرا على التنايل فى

(٦) التعبير الفرنسى يقول « الحسابات الوطنية تشتمل على السلع والخدمات التى يمكن تبادلها أو التى يتم تبادلها لئلا ، على مستوى السوق » . من كتاب *Comptes de la Nation* ، Ministère des Finances, Paris, 1980, Vol. 2 (Méthodes, p. 150)

التعبير الأمريكى يقول بما لا يختلف كثيرا من ذلك : « الميزان الأساسى الذى يستعمل فى تعريف وجه من أوجه النشاط على أنه الناتج الاقتصادى هو قدر استعماله فى التبادلات التجارية فيما وراء فى السوق . من كتاب :

Nation Income Supplement 1984 to the Survey of Current Business, Washington, p. 30

Herbert Marouse, *One-Dimensional Man*, Boston, Mass, Beacon Press, 1966, Chapter, 7. (٧)

مجالات التحقيق والتنفيذ ، وفى كلمات أخرى نقول ان الأمر يحتاج الى تفكير علمي بالمعنى التقليدي . ان ما يتصور القرارات من نقص أو قصور انما يرجع الى نقص فى معارفنا وفى ادواتنا وليس نقصا فى طبيعة الأشياء والناس والمجتمع ، فإذا لم يكن فى استطاعتنا فى يومنا هذا ان نحقق الكثير فان ذلك يرجع الى قصور فى معارفنا ، فإذا جاء الفد فان التقنيات الإدارية ستكون قد تقدمت الى درجة تسمح لنا بالسيطرة على النظم المعقدة ، وأن نصف باخر العوائق التى يمثلها مالا نتوقعه من الطوارئ . وعلى كل حال ، فيكفى أن نراجع بعض تلك الاتجاهات ونتبع الطرق التى اثارنا بها الأمل فيما يسمى « تكنولوجيا السياسة » فى العلم للتحقق من المدى الذى وصلت اليه أجهزة البحث العلمى ، ذلك لأنها مازالت تتمرد على الجهود الرامية الى ترسيدها باعتبارها واحدة من القوى الانتاجية المتعددة .

التخطيط ورسم البرامج

لعله من نافلة القول أن نتساءل عما اذا كان فى الامكان تخطيط العلم . هذا سؤال كلامي كما يقول هارفى بروك لأن « العلم مخطط اما تخطيطا ضمنيا نتيجة لأن القرارات التى تتحكم فيه تصدر من جهات خارجة عن العلم ، واما تخطيطا صريحا ومقصودا » (٤) . فعندما تنهض الدولة بمسئولية الممول الرئيسى للأبحاث ، فان توزيع الاعتمادات على الفروع العلمية وعلى مشروعات الأبحاث وعلى الباحثين يعبر عن توجيه لا يعتمد على المقدرة العلمية وحدها . ومن الناحية النظرية ، يستهدف التخطيط العلمى « أفضل التنسيق والتوافق بين ما يحتاجه العلم من استقلال دخلي وبين رغبة المجتمع فى الحصول على ثمار العلم » (٥) . ولكننا نقول فى المقام الأول بأن البحث العلمى يعد واحد من أبعاد التخطيط ، ونقول فى المقام الثانى بأن اتجاهات جهاز البحث العلمى وتطاعته تأخذ فى اعتبارها الافتراضات التى تستهدفها الدولة وهى اعتبارات ترتبط بتطبيقات العلم لا بالعلم ذاته .

وفى أفضل الظروف وأحسن الأحوال لا يذهب توفر الموارد الثرية بقضية الاختيار ووضع أولويات . فتوزيع الاعتمادات فى الميزانية العامة على قطاعات النشاط المختلفة لا يعتمد على الموارد المتاحة وحدها ، انما يعتمد كذلك على الاتجاهات التى تليها الظروف الاقتصادية . فمعضلة الاختيار التى واجهها « جحش يوربدان »

Harvey Brooks, «Can Science be Planned», Problems of Science Policy, (٤) OECD, Paris, 1964, pp. 97.

(٥) المرجع ذاته ، ص ٩٧ .

ليست من مشاكل الحكومة ، فالقرارات تؤخذ على نحو ما ، حتى ولو كان القرار هو عدم اتخاذ قرار . ينبغي أن تكون أهداف الدولة متوافقة على قدر الامكان ، ولكنها لا تريد في مدى تجانسها عن مدى تجانس الاحتياجات التي يقصد الى سدها . فالدفاع والمواصلات والتأمين الاجتماعى والتعليم والبحث العلمى وغيرها احتياجات غير متجانسة وغير متكافئة ، وهى جميعا تتطلب من الميزانية العامة مبالغ متباعدة ، وهى متباعدة حسب الظروف وحسب الافتراض المحددة للمدى القريب .. وبالإضافة الى ذلك يوجد مجال للاختيار فى كل قطاع ، وهو اختيار بين بدائل متباعدة وغير متكافئة بطبيعتها . من المستحيل القيام بكل الأمور فى وقت واحد أو القيام بها بنفس الأسباب ، لأن الموارد المتاحة فى لحظة معينة تكون دائما اقل من مجموع التطلعات الظاهرة . والواقع أن كل ما يعتبر من باب السياسة الثابتة لا يزيد على كونه توازنا دقيقا بين احتياجات بالغة الاختلاف .

من مميزات الإدارة الاقتصادية السعى نحو وضع أسس ثابتة على المدى الواسع، يستوى فى ذلك القطاع العام والقطاع الخاص ، وهو سعى لم تزل تتسع آفاقه فى فترة ما بعد الحرب ، ويبرز فى جلاء فى مجال التخطيط بعيد المدى (١) . فمهما بلغ الاختلاف بين مؤسسات التخطيط وطرقه ومنساجحه فى الدول المختلفة ، فإن القصد من التخطيط فيها جميعا هو « تقليل مدى ما لا يتوقع واختصاره الى سلسلة من الاختيارات الواضحة المعالم والقابلة للتناول » (٢) . ونصف كلمات بيير ماس التخطيط بأنه « حساب المخاطر ومناهج تفاديها » (٣) . وسواء كان التخطيط الزاميا أو ارشاديا ، مرنا أو غير مرن ، فإن معالاه الواضحة فى كل الأحوال هى أنه أداة لترشيد الاختيار بين البدائل . ولكن الواقع أن رشد التجربة التخطيطية لا يتبين ، اذا كان له أن يتبين ، إلا بعد اتمام الاحداث .

وتيسر لنا على مستوى المؤسسة التجارية أن نتعامل من الفرض من الانفاق المنصرف ، وأن نضع أولويات للأهداف ، وأن نجد وسائل تحقيقها ؛ فننفقات الطرق المختلفة يمكن تقديرها ، كما يمكن تقدير قيمة العائد منها فى هذا النطاق المحدد من النشاط الاقتصادى على أساس المصالح المحددة لتلك المؤسسة . وربما كان فى الامكان اتباع مثل تلك الوسائل لترشيد الاختيارات التى يلزم أن تتخذها وزارة متخصصة ، ونموذج هذا النجاح الذى لقيته طريقة « ميزانية المهمات الوظيفية »

Andrew Shonfield, *Modern Capitalism*, Oxford University Press (Translated from French version). (١)

الرجع السابق (٢)

Pierre Massé, *Le Plan ou l'Anti-Hasard*, Paris, Gallimard, 1965. (٣)

التي استحدثتها وزارة الدفاع الأمريكية . ذلك لأن تلك الطرق تجعل في الامكان مقارنة القيم النسبية للتكاليف والعائد من البرامج المختلفة والتي تقصد الى ذات الهدف (٩) . ولكن اذا حاول الانسان تصميم مثل هذه الطرق الادارية في المقارنة بين معيزات البرامج المختلفة التي تقصد الى اهداف مختلفة ، فان الاختيار يواجه عوامل القصور التي هي من سمات القرارات والاختيارات المتصلة بالنطاقات الاقتصادية الكبرى . فالحسابات تفقد دقتها بما يدخل عليها من اعداد متزايدة مع التخيرات ، ولكنها فوق ذلك كله تقابل قصورا لا يمكن تفاديه . ذلك لأنه ليس في الامكان قياس الأمور غير المتكافئة .

اذا اخذنا احدي مؤسسات القطاع العام مثل هيئة الكهرباء الفرنسية ، فاننا نجد انها قد تحاول تحليل قيمة النفقات والعائد من نوع معين من محطات القوى سواء كانت بالوقود او الطاقد الهيدروليكية او الطاقة النووية ، وهي في ذلك تعتمد على الدقة الرياضية . كذلك نجد أن هيئة السكك الحديدية الفرنسية يمكن أن تقارن بين الإنفاق والعائد من أنواع الخطوط الحديدية ، بل هي قادرة على حساب العائد النهائي وغيره من العوامل المالية التي تتبع تفرعات أجور الركاب والشحن نتيجة لمنافسة السيارات وطرق النقل البرية الأخرى . أي أننا مادامنا في حدود أنشطة متقاربة ومتماثلة ومرتبطة بهدف واحد ، فيطلب أن يكون النجاح حليف السعي نحو وضع أسس سياسية ثابتة . ذلك لأن الأمر لا يتجاوز تحديد الاحداثيات المدددة للعملية ، وهو القصد الكلي من التخطيط الذي يقصد الوصول الى النهايات العظمى . وليس من المستغرب أن تكون طرق الموازنات هذه قد تطورت نتيجة لبرامج الأسلحة الاستراتيجية ، فهنا يمكن أن يترجم الهدف الى معادلات حسابية ونماذج رياضية يمكن أن يستنبط منها ما يقصد اليه بأسرع الطرق وأقلها كلفة . وفي هذا المجال يقول واضعو النظريات في « اقتصاديات الدفاع في العصر الذري » (١٠) أن الاختيارات التي تصل بتحقيق الهدف الى أقصى حد في حدود ميزانية معلومة ، هي ذاتها الاختيارات التي تصل بالنفقات الى أدنى حد مع تحقيق الهدف . وفي كلمات أخرى ، لا يوجد تناقض بين الاعتبارات الاقتصادية والفنية والاستراتيجية ، والتي يبنى عليها أقرار نظام تسليح معين ؛ « فالاستراتيجية ذات

(٩) انظر على وجه الخصوص كتاب

David Novick, Program Budgeting : Program Analysis and the Federal Budget, Boston, Harvard University Press, 1966.

نظام التخطيط والبرمجة والإيزانية (PPBS) يطبق الآن في فرنسا تحت اسم : ترشيح الاختيارات في الميزانية (RCS)

Charles J. Hitch and Ronald N. McKean, The Economics of Defence (١٠) in the Nuclear Age, Harvard University Press, 1960, re-edited by Athensum, New York, 1965, p. 2

الكفاءة القصوى هي أيضا الألفا اقتصادا (١١) . وتتحدد مسألة الأمن باعتبارها ضمن المسائل الاقتصادية ، ومن ثم يمتزج السعي نحو وضع سياسة ثابتة امتزاجا تلغا بالرغبة في التوصل الى درجة الكفاءة العالية ، وينتهى الأمر بأن تحل الكفاءة محل الثبات والاستمرار .

أما اذا كنا بصدد مقارنة أنشطة مختلفة لا يبدو بين مقاصدها تقارب في أى شكل من الأشكال ، فإن فرصة تحقيق الثبات والاستمرار تضمحل بسبب العدد الزائد من المتغيرات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان . وبلدكرنا هذا بما نجده من البلبلة البالغة في تطبيق نظرية الألفاب كلما ادخلنا الى حلبة السباق لاعير جددا . لكننا نجد بالإضافة الى ذلك ، وفوق ذلك كله ، أن التباين في الأصول التي ندخلها الى مجال المقارنة ينفي فكرة اعتبارها حسابات راضدة ومعتولة ، ذلك لأن الأمر هنا في الواقع مقارنة ذات صفة ذاتية ومذهبية ، أي أن الاختيار هنا اختيار ميساسي . كيف تتسنى لنا مثلا المقارنة بين عملية بناء محطة قوى وخط مسكة حديد ، أو عملية بناء مدرسة ومستشفى ، أو دعم مزارعي القمح وصناعات خاصة ، أو بين ميزانية النشاط الثقافي والبرامج العسكرية ؟ الكل يعلم دون حاجة الى تفقه في التصوير الرياضي أن مسألة الثبات والدوام ليست مسألة النظام الذي يضع الإنسان نفسه في إطاره إنما هي مسألة الصلات التي ترسخ بين النظم المختلفة . ليست هناك جدوى من البحث عن الثبات الاقتصادي على أساس الاعتقاد بأنه تشكيل للرشد الاجتماعي ، ذلك لأن الحسابات الرياضية لا حول لها ولا قوة في ترجمة هذا التشكيل الى حقائق تحت ستار صياغته في أكثر التعميمات موضوعية وأعظمها دقة . وليس في الإمكان علاج التناقضات بين الاحتياجات المتنافسة والمقاصد المتباينة في النظم المختلفة على أساس واحد هو الكفاءة الاقتصادية .

ولعله من قبيل التلاعب بالالفاظ الكلام من التخطيط بينما الواقع لا يتجاوز مرحلة رسم البرامج ، وأولى بذلك الوصف أيضا الكلام عن الترشيد بينما الواقع لا يتجاوز مسألة حذف تلك الاتفاقات العامة التي لا يوجد لها مبرر ، أو رفض الشروط ذات التكاليف الزائدة . في هذه الحدود لا يريد معنى ترشيد الميزانية القومية على كونه اجرامات ادارية . ومهما بلغت كفاءة المناهج الادارية فانها لا تكفي لتحويل رشد الوسائل المتبعة الى ترشيد للأهداف التي نتوقع تحقيقها بتلك الوسائل . يقول مؤلفو كتاب « اقتصاديات الدفاع في العصر الثرى » ، بأن « تناقض في الأهداف بين الاعتبارات الاقتصادية في الميزانية ، واعتبارات الكفاءة والفاعلية في المجال العسكري » ، إلا في مرحلة تحديد حجم الميزانية وقدر

الأهداف التي يقصد تحقيقها » (١٢) . ولكن السنا نجد هنا جوهر مسألة النيات الذي يستهدفه التخطيط : « ففى داخل كل من الأجهزة (الدفاع ، التعليم ، البحث ، الخ .) يأخذ التخطيط شكل وضع برامج للموارد والإمكانات التي تسمح بتحقيق هدف معين ، على أن يتم ذلك على أعظم درجة من الكفاءة . وليست مهمة التخطيط تحديد هذا الهدف بادية ذى بدء . أما عندما تقع المواجهة بين الأجهزة المختلفة ، فإن الاختيار بين « بدائل واضحة المعالم وقابلة للتنفيذ » وهو قصد التخطيط ، يحسم الخلافات بين الاهتمامات المتباينة ، وغالبا ما يتم ذلك فى جو يتسم بالبيانات التفافصة والغموض والمساواة بين مصادر الضغط المتباينة التى ولا مفر يتصف بها النسيج السياسى فى تناوله لعملية تخصيص الاعتمادات .

فلنا ان اختيار أفضل الوسائل التنفيذية لا يكفى ليضمن لنا أن الأهداف المقصودة هى أفضل الأهداف ، ومن ثم فإن تحسين وسائل القياس الكمية ونجودها لا يذهب بعناصر الخلل المرتبطة بكل قرار سياسى . ونضيف الى ذلك القول بأن اجماع رأى الشركاء على الأهمية التى يعلقونها على مشروع يقررون توظيف أموالهم فيه لا يكفى لاثبات رشحهم . على سبيل المثال ، نتساءل : على أى أساس نقول بأن قرار الرئيس كيندى بشأن ارسال رجال الى القمر قرار راشد ؟ يقول رايموند آرون « من الأمور الحسنة معرفة ما تقصده بقولنا ان الذهاب الى القمر عمل غير راشد . هو عمل غير راشد فى اعتبار التقدم العلمى ، وهو لا شك غير راشد فى اعتبار الأهداف الاقتصادية ، وهو على الأرجح غير راشد فى اعتبار الأمن القومى ، أما فى اعتبار الهبة الوطنية فعليك أن تسأل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ماذا يعنى بذلك . فاذ قال لك أن الوصول الى القمر قبل الروس يعتبر نصرا من الدرجة الأولى ، وأنه يعلق على هذا الأمر أهمية قصوى ، فلك - ان شئت - أن تصفه بالخيال ، ولكننا نجد أن له وجهها من أوجه الحق » (١٣) . أما تحسين وسائل وضع المبرانيات فيمكن أن يجعل لعملية تخصيص الاعتمادات المالية مظهرا دقيقا ، ويجعل لها وسائل موضوعية دقيقة فى رسم البرامج ، ولكنها لا تكون فى حد ذاتها تخطيطا بمعنى الترشيح الاجتماعى ، ولا تحل محل العمليات السياسية التى تتوافق فيها الاهتمامات المتناقضة نتيجة لعمليات المساومة ، أو نتيجة قرارات من جانب واحد .

التصور الذى يلزم هذه الوسائل جميعا ، يبرز أبلغ بروز عند محاولة تطبيقها على البحث العلمى . فما تزال المسألة تتعلق « بتقيل مدى ما يمكن توقعه ، والتوصل الى عدد من البدائل الواضحة المعالم القابلة للتنفيذ » ، ولكن صفة « مالا

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢

Raymond Aron, «Applying First Principles, in Decision Making in National Science Policy, a CIBA foundation of Science and Science foundation Symposium, London, J. & A. Churchill Ltd, 1968, p. 288.

يمكن توقعه « سمة موروثة في طبيعة الأنشطة العلمية التي يقصد الى تخطيطها ، بل هي من ذات جوهرها . ولسنا نقصد القول بأن النشاط العلمي يلزم اعتباره نشاطا خاصا و متميزا لا يمكن مقارنته بأجهزة الإنتاج ، انما علينا أن نتذكر قول كوستوفر فريمان بأن الزراعة مثل العلم تعتمد على عمل الاحتمالية في الإنتاج ، ذلك لأن نتائج العلم تتعرض لمثل ما تتعرض له الزراعة من انحراف عن الإنتاج القياسي نتيجة للتغيرات الموسمية ، وظروف الطقس ، والآفات الطارئة ، وغير ذلك . فإذا لم يكن للفلاح من سلطان على الأحداث الطبيعية ، وإذا لم يكن للعالم من سلطان على التقدم غير المنضبط لاستكشافاته ، فمن باب أولى أن لا يكون للمخطط مثل ذلك السلطان . انما يعمل المخطط على أساس أن كل زيادة في الاعتمادات المخصصة للقطاعات ينتج عنها حتما زيادة في الإنتاج ، وأن كل انقاص في الاعتمادات يتبعه خفض في الإنتاج (١٤) .

على أن جهد التخطيط في مجال العلم يتعرض لتقييد خاص يقتضيه أن يحدد لنفسه مالا يتوقع باعتباره من الأغراض لا باعتباره غرضا يمكن التنبؤ به . فإذا هدنا الى مثل الزراعة نجد أن الانحراف عن الإنتاج القياسي لا يدعو الى الاستغراب لأن ذلك من طبيعة الإنتاج المتوقع ، أما في حالة البحث العلمي فإن الزيادة على قلتها أو النقص على قلته يمثل فارقا بارزا كالفرق بين كل شيء ولا شيء ، فليس هناك من اكتشاف أو ابتكار يمكن أن نسميه أمرا لا مفر منه . أما المهمة الخاصة لمعاملات التنبؤ الاقتصادي فهي النظر الى النسب بين عدد محدود من المتغيرات التي ظهرت ثباتا في الماضي ثم استنتاج ثبات هذه النسب في المستقبل . لناخذ الدخول القومي كمثال . يستطيع الاقتصادي أن يحسب قياسات للعالم القادم وذلك بأن يفترض معدلات ثابتة للزيادة والنمو الاقتصادي . ولكن افتراض وجود هذه المعدلات الثابتة هو ما ينقص البحث العلمي ؛ فليس هناك سلاسل احصائية للاكتشافات والاختراعات والفتوح العلمية والتقنية الكبرى التي يمكن ان تتيح لنا فرصة التقدير الاستقرائي .

لنتذكر مسألة استكشاف وتحضير مادة البنسلين ، لأن في قصتها مثالا نموذجيا للدور الذي يمكن أن تقوم به المصادفة والحظ في الاستكشاف . يقال في بعض الأحيان أنه قد كان في استظامه باستير أن يتعرف على أساسيات فعل ففن البنسليوم قبل خمسين عاما أو نحوها ، لو تهيات له امكانيات معملية وتجريبية أفضل ، وإذا لم يكن مستغرق التفكير في أمور أخرى ، كلنا نقول : أه لو كان ألف كليبواتره أقصر .. أن اجتماع الظروف المواتية التي تحدد في آخر الأمر مدى الاستكشاف ، يتفق اتفاقا تاما مع تعريف كورنوت لفكرة المصادفات ، إذ يقول « هو

(١٤) Christopher Freeman. «Science and Economy at Nation Level» in *Frontiers of Science Policy*, OECD, Paris, 1968, p. 89-90.

اجتماع أحداث تتكون منها أجزاء فى سلسلة ، وهى أجزاء مستقلة بعضها عن بعض » ، وفى ذلك رد حاسم على كل من يقول بنظرية الحتمية فى مجال الاكتشافات العلمية . ولو كان لدى فلمنج معمل كالمعامل الحديثة لما أتيت فرصة تلوث المستنبتات بفطرة البنسليوم ، وهى فطرة غير شائعة فى الهواء ؛ ولكن مما ساعد على تحقيق الاكتشاف هذا التلوث ، ونوع المستنبت الذى اختاره فلمنج فى تجاربه ، وكذلك كانت السلالات البكتيرية التى زرعها فلمنج (البكتريا المنقودية) على درجة عالية من الحساسية لتأثير الفطر المضاد للبكتريا . ولعل العامل الذى لا يمكن قياسه والذى ساد عملية استكشاف الأثر الفعال للبنسلين استمر كذلك فى عملية عزل وتحضير المضاد الحيوى ، فالمادة التى حصل عليها فلورى كان فيها الكثير من الشوائب ، وقد كان يكفى ٩٩٪ من تلك الشوائب لأحداث آثار سامة تذهب بالآثر العلاجي للأفطرة ، ولو قد استعمل فلورى فى تجاربه خنزير غينيا بدل الفيران لكانت نتائج التجارب عكسية ، ذلك لأن مادة البنسلين سامة بالنسبة لخنزير غينيا (١٥) ، ولم يكن فى الامكان التخطيط لبحوث المضادات الحيوية وموادها قبل عزل البنسلين وتحضيره . اتما جاء بعد ذلك ، وبمعاونة ظروف الحرب العالمية الثانية ، ان أصبح هذا الجهد العلمى موضع برامج مرسومة بقصد اختصار المدى بين الاستكشاف والانتاج التجارى .

فإذا لم يكن فى قدرة السياسة العلمية ان تقدم « اختيارات واضحة المعالم وقابلة للتنفيذ » فان مرجع ذلك الى أن هذا المجال ما يزال بطبيعة الأشياء مجال التشككات . فان كان من غير الممكن تحديد أهداف البحوث الحرة ، فمن باب أولى ان لا يمكن تحديد الوقت اللازم لتحقيق تلك الأهداف . ومهما بلغت الدقة فى رسم برامج البحوث الموجهة فلا يمكن تحديد الوقت اللازم لتصل تلك البحوث الى أهدافها . على هذا الأساس نقول بان البرامج الخاصة بالتحكم فى الانتحيمات الذرية الحرة التى افتتحت فى وقت واحد تقريبا فى الخمسينات فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وبريطانيا ، والتى كان قد تحدد الفراغ منها خمس سنوات ، ما تزال تلك البرامج حتى اليوم بعيدة عن الوصول الى مقاصدها (١٦) . ولا يجب ان تغشى ابصارنا الهيبة التى ترتبط بكلمات معينة فتقبل الأفكار التى تخفيها تلك الكلمات ، ولا ينبغى أن نخلط بين رسم برامج البحوث وبين التخطيط العلمى ، كما لا ينبغى أن نخلط بين المحقق وغير المحقق .

(١٥) انظر شرح هذه القصة وغيرها فى كتاب :

René Taton, *Reason and Chance in Scientific Discovery*, New York, Hutchinson, 1967.

(١٦) لم يقتصر الخلط هنا على الاستمالة بشخامة المصائب التكنولوجية ، ولكن يرجع لبل كل فوه

الى افعال المشاكل النظرية المتعلقة بغيرها اللازمة من التخطيط الشروعات . انظر
H. Roderick, *Fundamental Research and Applied Research and Development Introduction*, in *Problems of Science Policy* OECD, Paris, 1968, p. 91.

أما الآراء التي تقول بالتوجيه والحتمية في الابتكار فإنها لم تقدم شاهدا يدحض كلمات عالم الاقتصاد جاكوب شموكلر : « كل ما تسمح لنا به مصادفنا الحالية هو القول بأن احتمال التوصل إلى ابتكار معين يتراوح من صفر إلى واحد » (١٧) . أما الفكرة القائلة بالتوزيع الأمثل للامكانيات على أنشطة الأبحاث المختلفة فتفترض إمكان زيادة هذا الاحتمال بالنسبة لأحد قطاعات البحث ، وتفترض كذلك إمكان قياس المميزات والعيوب في توجيه الاعتمادات إلى أحد قطاعات البحث بدل الآخر . وحتى على مستوى الشركة الواحدة حيث يمكن التحكم إلى درجة ما في المخاطر التي ينطوي عليها البحث ، ذلك لأن حساب الاحتمالات يعين الحدود التي يسمح بالمخاطرة في إطارها . إن مثل هذا الحساب الذي يتناول مميزات المشروعات المختلفة أو البدائل ، لا يعنى التحكم الكامل في عملية الخلق العلمى ، ذلك لأن المخاطر هنا موجودة على الدوام ولكنها توجد تحت اسم آخر هو عدم اليقين . أما على المستوى القومى فإنه من الواضح أن مثل هذه الحسابات غير متاحة ، ومن المقرر أن نتيين كيف يمكن للتخطيط الكمى الدقيق أن يغير هذا الوضع إلى وضع أفضل .

ولعل وسائل ترشيد القرارات قد نشأت جميعا من خبرة وضع البرامج لنظم التسليح الحديثة ، حيث تتحدد الأهداف وتتحدد البرنامج الزمنى لتحقيقها مع ما ينسجم به هذا التحديد من دقة كاملة . المخاطر الاستراتيجية واضحة المعالم ، وهى تحدد مرة واحدة ولا تتغير : هى مسألة حياة أو موت (١٨) . التنافس والبحث عن الربح يمكن أن يحددا للشركات الخاصة مقاصدها من السبق التكنولوجى ، وهى دواع لا تختلف كثيرا فى جوهرها عن الدوافع الاستراتيجية أو الدبلوماسية على مستوى الأمة . فإذا كانت هذه الوسائل لا تنطبق على أنشطة البحث العلمى أو إذا كانت تنطبق انطباقا غير مستقيم ، فليس مرجع ذلك أن المخاطر مختلفة ، إنما لأن طبيعة هذه الأنشطة مختلفة تمام الاختلاف عن العمليات العسكرية : فأهدافها

J. Schmoockler, *Invention and Economic Growth*, Cambridge, Harvard Press, 1966, p. 215.

الاستراتيجية من موضوع الحتمية في مجال الابتكار انظر على وجه الخصوص
S.C. Gilliland, *The Sociology of Invention*, Chicago, Follet Publishing co. 1935.

وانرا ذلك المقال

R.K. Merton, *The Role of the Genius in Scientific Advances*, in *The new Scientist*, London, Nov. 1961, p. 308.

(١٨) « أقول بأن أولويات البحوث العسكرية وطورها قصر أهميتها على تمكيننا من السبق الزمنى قول ينطوى على غلط . ذلك لأن نجاح البحوث العسكرية قد يكفى وحده لمنع الحرب أو كسب الحرب ، فلذا كانت الأمة في موقف الدفاع الاستراتيجى قد يكون لها النجاح عاملا لتفادى الفيزية » كتاب *التصاديات الدفاع في العصر الذرى*، ص ٢٢٥ .

« نخل نتائجها المتوقعة لا تتصف بدقة الحدود ، وهى معرضة فى كل لحظة للتحدى والمراجعة . ولعل المرء يتردد فى القول بمثل هذه الحقيقة البديهية ، ولكننا نقولها ونرددتها لما نجد فى مناقشات السياسة العلمية من شعور بالإنهيار بهذه الوسائل الترشيدية لدى العلماء ولدى الإداريين . فتحليل النظم ، ونظام التخطيط ، وبرمجة الميزانية ، وفاعلية الإنفاق ، وفرعات التكافؤ ، وغيرها من حصيلة الكلمات التى تعبر عن الطرق الكمية ، كلمات ذات سحر يأسر ، كأنها قادرة على تحقيق الخوارق ، وكأن فى الامكان تحويلها من مجال اقتصاديات الدفاع الى مجال اقتصاديات البحوث .

الواقع ان تلك الوسائل لا تزيد على كونها أدوات لرسم البرامج وللادارة ، وهى تخدم عمليات حساب التكلفة وبيان المراحل الفنية الأساسية لتحقيق نتائج معين أو عملية محددة ، وهى وسائل لا تناسب أنشطة البحوث والتطوير ، حتى ان الأمر يحتاج هنا الى تغيير واحد من الأسس التى تبنى عليها وسائل التناول . ولقد أكد مؤلفو كتاب « اقتصاديات الدفاع فى العصر الذرى » القول : « فى مراحل التقصى والبحوث يكون تحديد الأهداف والبرامج الزمنية تحديدا دقيقا أقل أهمية من محاولة استعراض كافة الإمكانيات المرجحة ، واختيار أفضل العلماء ، وكافة المعامل تجهيزا ، واستشارة المنافسة ، والمحافظة على قدر من المرونة يسمح بالتبعية النسيط للفتوح العلمية الكبرى (١٩) . المقصود من ذلك فى أيجاز أنه فى مجال العلم : ليس من الضروري أن يكون أفضل البدائل هو ما يبدو للوهلة الأولى أكثرها اقتصادا . ولعل بعض ما يستنتجه المؤلفون من اتصاف البحث العلمى بالشك وعدم اليقين ، يبدو وكأنه يعاكس مساعى الترشيد وهو الهدف من التخطيط . بالبحث العلمى ولاشك أمور تجرى على عكس أساسيات الاقتصاد التى هى الشغل الشاغل للأجهزة الإدارية فى الحكومة ، وكثيرا ما يستشهد بهذه الأمور واضعو السياسة العلمية ليبرروا طلبات تخصيص الموارد للعلم . وكما كانت نتائج البحث غير محققة ، فإن تكرار الجهد ، بمعنى السعى على خطوط مختلفة ، يصبح مرغوبا فيه : فكلمة عظم قدر النتائج المتوقعة من البحث كلما زاد قدر الشك فى أمرها وازدادت الحاجة الى التكرار .

لقد وضعت تلك الأسس بالنسبة للبحوث والتطبيقات العسكرية كذلك ، وهذا وضع يخالف ما يجرى عليه أمر القطاعات الأخرى من اقتصاديات الدفاع . يضرب لذلك مثالا بمشروع مانهاتان الذى تضمن استعمال ست طرق مختلفة ومستقلة ، استعملت فى وقت واحد ، لفصل المادة القابلة للانفجار . هذا نموذج لا يمكن اتباعه

Charles J. Hitch and Roland N. McKean, *The Economics of Defence in the Nuclear Age*, p. 240. (١٩)

فى مجال البحوث المدنية الا اذا كانت المؤسسة المعنية (الشركة او الامة) تعرف القيمة التى ترتبط بالحصول على النتيجة . من ذلك يتضح على وجه الدقة ان التخطيط العلمى لا يعتمد كثيرا على وسائل تحديد المقاصد والاهداف مهما بلغ قدرها العلمى او مدى تقدمها ، انما يعتمد فى الواقع على تعيين الاهداف اى اختيار الأولويات التى توضع لها بالنسبة للأهداف البديلة . وتوجيه جهاز البحث العلمى لا يصبح أكثر رشدا بمجرد استعمال تلك المناهج فى تنفيذ البرامج ، مهما بلغ قدر التحسين والتجويد الذى ندخله الى طرق ادارتها . والواقع أننا لا نجد مشروعات وضعت برامجها بدقة مثل « مشروع أبولو » ، ولا تعرضت مثله تعرضا دقيقا لعمليات تحليل النظم ، ولا تم استيعابها على أنها واحدة من أصعب المهام التى توكل الى ادارة أبحاث ومن أكثرها تعقيدا . أما طرق الترشيد التى استعملت ومكنت من حل المشاكل الفنية والاقتصادية التى كان يلزم مواجهتها عندما اتفق الرأى على المشروع ، فانها لا تقوم هنا برهاننا على رشد المشروع ذاته .

التنبؤ التكنولوجى :

بالرغم مما ذكرنا ، فان الثقة بتلك الوسائل هى التى انبثت فكرة « تكنولوجيا السياسة العلمية » واعتبارها قادرة على تغطى شكوك البحث تغطيا علميا ، ومن ثم فهى قادرة على تخطيط العلم بمعادلات كمية لا تقل فى ثباتها وفاعليتها عن تلك المعادلات التى تستخدم فى التخطيط الاقتصادى . ولكننا نكرر مرة أخرى أننا لا نقصد الى القول بان الاستعانة بهذه الوسائل باعتبارها أدوات للادارة ، أمر غير حتمى ، ولا نقول بانها لا تؤدي الى توضيح الرؤية ومن ثم تريد من فاعلية عملية اتخاذ القرارات وتنفيذها . من المألوف ان نقول بان الزيادة الواضحة فى سرعة التغيير ، والزيادة الواضحة فى تعقيد المشاكل الادارية ، تدفع المجتمعات الحديثة الى تصور المستقبل ومحاولة ترسم أبعاده . يقول جاستون بيرجر فى مطالبته منذ امد بعيد بالنظرة المستقبلية ، « السائق الذى يقود عربته فى بطن على طريق اعتاده لا يحتاج فى الليل الا الى مصباح ضعيف ، اما اذا كانت العربة بسرعة وتقطع بلادا غريبة على سائقها فانها تحتاج الى مصباح وهاج (٢٠) » والنجاح الذى تلقاه التنبؤات بعيدة المدى يعبر من مدى اهتمام الناس عامة وحس استطلاعهم لكل جديد مستحدث ، وهو اهتمام يساوى قلقهم على المستقبل ، ذلك لأن المستقبل ينطوى على مصادر القلق بسبب سرعة التقدم التكنولوجى وتراكم هذا مما يبدو معه المستقبل وكأنه امر حتمى لا مفر منه . فاذا أصبح التنبؤ مجالا هاما ومعترفا به حتى ليصل الى درجة التحول الى

Gaston Berger, «La Prospective», 1967, in *Phénoménologie du Temps* (٢٠) et *Prospective*, Paris, P.U.F., 1967, p. 221.

صناعة قائمة بذاتها (٢١) فإذا ذلك لا يعني أن وسائله قد اتخذت صفة التبيان العلمى ،
أو أنها فوق كل شيء قد أزيلت - أو حتى قللت - من النسيج اللتبس للقرارات .
أما فن الحدس والتخمين فمهما بلغت صرامة الاداة العلمية التى يعتمد عليها فإنه
لا يتجاوز كونه فنا .

ليس معنى هذا أن السياسة العلمية يمكن أن تستغنى عن بعض التدبر المسبق
والنظر فى العواقب . إنما نقول بأن برامج البحوث لا ترضخ للنمط السنوى الذى
توضع عليه الميزانيات الوطنية ، ولا يمكن تبرير نتائج هذه البرامج على مستوى المدى
القصر . بل أننا إذا فكرنا فى النواتج المباشرة وغير المباشرة ، غير المتوقعة أو غير
المغروب فيها ، للتقدم التكنولوجى ، فإننا نجد أن قطاع البحث العلمى هو أجدد
قطاعات الاداء السياسى بالتروى وتدبر العواقب . ولما كان تطبيق العلم والتكنولوجيا
يتيح للإنسان أقوى الأدوات وأقدرها على أحداث التغيير ، فإن الأمر يقتضى منا بلل.
قصارى الجهد فى محاولة التأثير على مجرى الأحداث ليكون توجيه التقدم.
التكنولوجى على ضوء مضامينه وآثاره التابعة لا على ضوء أصوله ومنايه . ولكننا مع
ما تقدم عليه - الى حد ما - من توجيه تدريب التقنيين الجدد ، من ناحية طبيعة هذا
التدريب وبرنامجه الزمنى وعدد هؤلاء المتدربين ، لا نستطيع التنبؤ بتأثيرهم على
التطور الاجتماعى .

لنأخذ المثل البسيط الذى ضربه برتراند دى جوفينل ، وهو نقص خدم المنازل.
فى الدولة الصناعية ، وهو نقص لم ينشأ عن التقدم التكنولوجى إنما نشأ عن
سياسة العمالة الكاملة . أما ما قد يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا من
استمرار هذا النقص فى فترات البطالة وزيادة عدد عاطلين ، فإن ذلك يرجع
الى أن الخدمة بالمنازل ليس لها جاذبية نفسية ، ويرجع بدرجة أكبر الى « وجود
مصادر بديلة للدخل على هيئة امائات البطالة ، وهى ناتجة من اجراءات
سياسية (٢٢) » . أما الثورة التكنولوجية فى الأدوات المنزلية فإنها لم تفن عن الخدمة
المنزلية ، كما لم يقن ترويض الحصان واستئناسه فى الغرب عن استعمال العبيد .
إنما ترجع اسباب ذلك الى طريق طويل ودوار من المبادرات السياسية التى لا ترتبط
من بعيد أو من قريب بالتقدم التكنولوجى . والواقع أن انتشار الأدوات المنزلية
الآلية هو نتيجة العمالة الكاملة والدخول المرتفعة أكثر مما هو نتيجة التقدم
التكنولوجى . يقول برتراند دى جوفينل « لو أنك قلمت فى عام ١٩١٣ الى جهاز

(٢١) يقدر مائتلفة المؤسسات الاقتصادية الأمريكية على معاهد البحوث والتطورات ومراكزها بما
يزيد على ٦٥ مليون دولار فى مجال التنبؤات التكنولوجية وحدها . انظر كتاب
Eric Jantsch, *Technological Forecasting in Perspective*, OECD Paris,
1967, pp. 251-253 and 272.

Bertrand de Jouvenel, *The Art of Conjecture*, Weidenfeld, 1967.

(٢٢)

«التنبؤ الاجتماعي كل بيانات التقدم التكنولوجي في مدى نصف القرن التالي لما
استطاع قط ان يتنبأ باختلافه خدم المنازل (٢٢)» .

كذلك تصور المثالية الخيالية ملامح المستقبل للمجتمع ، وهو مستقبل متصل
بدرجة معقولته بقدر الروابط الاجتماعية المعاصرة التي يستقيها اصحاب المثالية
في تصورهم للمستقبل . وهم في تصورهم لا يتقيدون بحدى الزمن ، انما يرسمون
صور للمستقبل في تاريخ خيالي ، ويكون التصور في بعض الأحيان رجوما الى
« العصر الذهبي » الذي يصور الكمال البدائي ، ويكون في بعض الأحيان الأخرى
«صورا خرافيا للحاضر في صورة متحولة (٢٤)» . اما الاتجاه المستقبلي الواقعي فهو ،
على عكس ذلك ، لا يتفادى الزمن بأن يسترجع أو يبني مدينة فاضلة ، انما يفترض
تواريخ معينة ومراحل في التاريخ المستقبل محددة ، ووهذا مرسومة . وهي جميعا
تدخل في اطار حسابي ، ويتكون منها برنامج زمني تبرز في مواعيده « الأحداث التي
تشكل المستقبل » . فاذا كان الاتجاه المستقبلي يتضمن تحديا لمخاطر المجازفة على
نحو ما يتضمن الاتجاه المثالي تحديا لفكرة الزمن ، فإن تصور المستقبل على الحالين
يبقى محتفظا بوظيفة التطهير (أي التخلص من الأرواح الشريرة) . ولا تروم لفئة
توقيت الاحتمالات تصورا للمستقبل أكثر دقة من لفة التخيرات غير الموقوفة . فالتنبؤ
بالمستقبل يعتمد على تصور لامتداد الاتجاهات ، وهذه الاتجاهات ترتبط بتفيرات
يفوق عددها وتعدها كل ما يضعه المثاليون في اعتبارهم ، ولكن عددها مع ذلك يكن
محصره . نضيف الى ذلك الإشارة الى ما عرفه الاقتصاديون منذ زمان بعيد ، وهو
أن قصور التنبؤ بالمستقبل الاجتماعي لا يرجع الى قصور في طرق التنبؤ بقدر
ما يرجع الى قصور في البيانات عن الأحوال المعاصرة ، ونعني بكمال هذه البيانات
أن تكون موحدة النمط ، شاملة ، ومتاحة في وقت الحاجة اليها . يقول دونالد أ. شون
« الحصول على البيانات في الوقت المطلوب قد يساوي في الأهمية ذات الحصول
عليها ، مثال ذلك اننا حاولنا في عام ١٩٦٥ ان نعد تنبؤات لعام ١٩٧٥ على اساس
بيانات عام ١٩٥٨ (٢٥) » .

ولا يختلف الأمر عند تطبيق الاتجاه المستقبلي على البحث العلمي . نجد أول
ما نجد في مجال البحث العلمي أن العملية ذاتها ، والمؤسسات التي تقوم على أمرها ،
والأشخاص الذين ينهضون بمسئوليتها . تشكل جميعا جهازا يبلغ تعقيده درجة
يتعذر معها تجميع كافة البيانات والمعلومات التي تبدو هامة ، ثم التمكن من هذه

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٨

(٢٤) انظر كتاب Les Utopies de la Renaissance, Paris, P.U.F., 1968

(٢٥) Donald A. Schon, «Forecasting and Technological Forecasting», in «To-ward the Year 2000 : Work in Progress», Dordrecht Boston, 1967, p. 766.

البيانات . ثم نجد ثانياً أن جهاز البحث العلمى ذاته لا يمكن أن يعالج باعتباره جسمه ذا حياة خاصة يستقل بها عن سائر الأجهزة الأخرى . يؤكد جيلبرت سيموندون أن الأداة التكنولوجية ذات كيان ووجود محدد لأن لها نشأة وتطور ، ولكن تلك النشأة وهذا التطور لا تخص الأداة وحدها ، إنما تشمل كذلك تاريخ علاقتها بالإنسان . وبالعالم (٣٦) . والتنبؤ التكنولوجى يتحدى خلال التبدد كأنما يتناول كياناً مستقلاً عن الإنسان مشحوناً بأشياء تقية يتحدد احتمال وجودها بالنموذج الادائى للشيء فى صورته النهائية : جهاز ومعد للاستعمال والأداء ، كان الأداة منمثلة عن التاريخ وليست جزءاً من ترابط وظيفى وتطورى يتمثل فى العلاقة بين الأداة والإنسان . لكن الواقع هو أن العلاقة موجودة منذ بدء الخليقة ، وتحديد المراحل المثالية لا يعول نشأة الأدوات التكنولوجية وتطورها عن مشاركة الإنسان فى مراحل العملية . ان محترفى التنبؤ التكنولوجى لا يريدون من كونهم يحددون باتجاه الأحداث ، أى بنتيجة سلسلة من الاسئلة تقدم للخبراء ، واجابة هؤلاء الخبراء لا تزيد - مهما صيغت فى معادلات رياضية وعولجت معالجة حسابية - عن كونها آراء (٣٧) .

لعل كتاب أريك جانتش مسئول أكثر من غيره عن اشاعة فكرة التنبؤ التكنولوجى كأداة لرسم السياسة العلمية بين الإدارات الوطنية . فهو كتاب ساحر فى كثير من الأوجه ، وعلى الخصوص ذلك الاستعراض الواسع الاقنى للأخطاء المتعددة للطرق والأنظمة التى يمكن أن تختص « بما يكن ان نطلق عليه التقدير الاحتمالى ، على مستوى من الثقة عال علوا نسبياً ، لمستقبل التحولات التكنولوجية (٣٨) » . وفكرة التحولات التكنولوجية تهمى للتنبؤ بعدا جديداً ، لأنها تقترح « حيزاً » يكون مجال طموح للتنبؤ بالاكشافات والاختراعات والابتكارات ليس لدائها فقط ، وإنما كذلك على أساس تأثيراتها على البيئة الاجتماعية . أول مستويات التنبؤ يجتزىء

Gilbert Simondon, *Du Mode d'existence des objets techniques*, Paris, (٢٦)
Anhier-Montaigne, 1960, pp. 154-158.

(٢٧) « طريقة ديلى » هى أشهر النماذج المعروفة للوسائل التى لا تخفى حقيقة اعتمادها اعتماداً أساسياً على الإلهام . فى هذه الطريقة توضع سلسلة منتظمة من الاسئلة المبرجة بدرجة دقيقة تتناول الاتجاهات التكنولوجية فى مجال علمى ما ، وتقسّم الاسئلة الى جملة من الخبراء الاختصاصيين ، ثم تقدم الاجابات بملومات وبيانات تجمع من الخارج ، ثم تقدم هذه الاجابات والبيانات جميعاً الى حاسب الكترونى . النتيجة هى قائمة بنتبؤات من الفروضات التكنولوجية تترى حسب برنامج لىمى يتكون من مراحل الاحتمالات تتحدد بالاتفاق المتبول بين جماعة الخبراء . أما وسائل التنبؤ التكنولوجى التى تستهدف قليل دور الإلهام باستعمال مزيد من الآلات الحاسبة ، فمن الواضح أنه لا ناس من الدراسة التمهيدية التى يقوم بها الخبراء . من طريقة ديلى ، انظر كتاب :

T.J.Gordan and Olaf Helmer, *Report on a Long-Range Forecasting Study*, Report. p. 2082, Rand corporation, Santa Monica, 1964.

لشرح الطرق الأخرى انظر المرجع ٢٨

Erlich Jantsch, *Technological Forecasting in Perspective*, OECD, Paris (٢٨)
1967.

بتحديد الزمن المطلوب لاستكمال اختراع معين ، والجهد المطلوب للحصول عليه ، والإمكانيات الوظيفية التي يمكن أن تكون له . هذا ما يسميه جانتش «التنبؤ التكنولوجي الاستطلاعي» وهو في ذلك يميزه عن المستوى الأعلى من التنبؤ والذي يسميه «التنبؤ التكنولوجي المعيارى» الذى يتناول أيضا البصر بكل توابع الاختراع .

في كلمات قصيرة نقول ان المستوى الأول يتناول تاريخ الاختراع ذاته ، أما المستوى الثانى فيتناول الطريقة التى يمكن أن يؤثر بها الاختراع على التاريخ عمومه .

يمكن القول بأن كل ما نبع من الاتجاه المستقبلى من كتابات يبدو وكأن له نكهة «الصباح لدى السحرة» . وليس كتاب جانتش بأقل من غيره فى هذا الصدد (٢٩) . ولكن روح الشعور بالمسؤولية التى تتصف بها المؤسسات التى رصد الكتاب أنشطتها ووضعت كيائها ، والنظمة الدولية التى كفلت الكتاب ورعته ، تكفى جميعا لأن تأخذ الكتاب مأخذ الجد . التفاؤل الذى يديه تجاه إمكانيات التنبؤ التكنولوجى ينبئ به المناخ الذى تنغمس فيه السياسة العلمية ، وكثير من أصحاب السلطة الادارية يشاركون فى هذا التفاؤل ، متهيئون لتصديق الفكرة القائلة بأن لو استوفيت واستكملت الادوات التقنية ثم استخدمت مستخدما منتظما فى اتخاذ القرارات الحكومية المتعلقة بالعلم ، فان الترشيد ينجح فى السيطرة على كل مصادر البلبلة والتبديد ، وسيقدر لذلك على السخيرة من التاريخ .

يبدو التنبؤ التكنولوجى من هذه الناحية أقرب صلة بالطريقة الرومانية فى تأويل القول منه بالتصور الاسطورى للمدينة الفاضلة فى مثاليات عصر النهضة . ذلك لأن تلك المثاليات ، فى عدم مبالاتها بفكرة الزمن ، لم يكن لها اهتمام بالعمل المباشر ، إنما كان اهتمام العرافين الأول أن يجعلوا من انفسهم أصحاب الشعارات التى تتحكم فى الأفعال (٣٠) . وكما كان من وظيفة العرافين أن يثبتوا الأوضاع ، وتقصدها هذا المعنى البدائى لفكرة التشبث ، « فان القول ذاته يصبح قاطع الدلالة

(٢٩) مثال ذلك وعنها على نفس المستوى وسائل تنباين لديها درجة التوكيد والاستيصال ، أو تناول أمورا على أنها حقائق ثابتة والواقع أنها ليست كذلك . من هنا يقرأ الإنسان القول « هناك قطران فقط استكملا الهيكل المطلوب ليصبح التنبؤ التكنولوجى متاحا بطريقة منتظمة لهماون التخطيط الوطنى : الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا . ليست كلمة « فقط » من مصدر الخطأ الفادح ، ولكنه القول بأن مثل هذا الهيكل قد وجد أصلا فى فرنسا أو فى الولايات المتحدة الأمريكية . كتاب :

E. Jantsch, *Technological Forecasting in Perspective* , p. 378.

Jean Bayet, *Histoire politique et psychologique de la religion romaine*, (٢٠)

Paris, Payot, 1987, pp. 51-60.

Raymond Bloch, *Les prodiges dans l'Antiquité Classique*, Paris, P.U.F., 1968, p. 3rd part

يفعل الشعائر والطقوس المرمية وتأثيرها (٣١) . من هنا نتيبن أن المتنبئين التكنولوجيين يعملون على تثبيت خطوط القوى في العلم والتكنولوجيا ، وهي أمور سيصبح لها الجسم بفضل الحسابات الرياضية . التناول الراشد والمنهجي يحول تفسير الشعائر والارشادات من مجال الطبيعة غير ذي الحدود الى مناطق حضارية ذات حدود . لم يعد مطلوباً أن تحل شفرة رسالة المستقبل على أساس التجليات الطبيعية التي قد تتدخل فيها الآهة لتكون بين الانسان وقدره ، إنما المطلوب هو أن يكون الأساس هو نوايج الحضارة ، وهنا يكون مستقبل التكنولوجيا نظراً لقسمة الانسان وقدره . على أن المسألة لم تتبدل ، فما تزال مرتبطة بظروف تستحث الانسان على الفعل المباشر ، والاختيار الوقتي ، والقرارات العاجلة .

على أنه من اليسر أن تشكك في المتنبئين التكنولوجيين ، فحتى في المستوى الأول من حدسهم ، وهو « التنبؤ الاستطلاعي » لم يثبت صدقه بعد ، إلا باعتباره أداة 'وضع برامج الانتقال من مرحلة استكمال الاكتشاف أو الاختراع الى مرحلة التجديد والابتكار . وكفاءة تطبيق الاكتشافات التي تحققها مناهج الادارة الحديثة تجعلنا نعتقد بأننا قادرون بنفس تلك الوسائل الميكانيكية أن نطوع عملية الاكتشاف ذاتها الى ما يشبه برنامجاً من برامج التنبؤ يسمح بتحويل طاقات الاستكشاف الى امكانيات عملية ، أو في كلمات أخرى ، يسمح برسم صورة الاستكشاف في وقت يمكن معه أن تعالج تلك الصورة معالجة رياضية وكأنها حالة تحقق في إطار المدى المحدد . ولكن التحكم في العملية التي يتم بها الحصول على نتائج الأبحاث ما يزال أمراً غير متحقق . فهما بلغ وضوح تصورنا لعملية البحث العلمي في إطار علاقتهما بالتكنولوجيا وبالضوابط الاقتصادية ، فإننا لا نستطيع قط أن نوسع جانباً منابع التشككات التي هي جزء من أصول عملية البحث العلمي ومن جلورها .

الهم إلا اذا تصورنا أن الاستكشاف يتنزل - على نحو ما يقول برجسون من المستقبل - « في ضرب من الصندوق مليء بالامكانيات » ، يستطيع الخبراء ، بفضل صلتهم التقليدية بالعلم والتكنولوجيا أن يجدوا له مفتاحاً (٣٢) . هذا التصوير لا يختلف في مجال تخيل التغير التكنولوجي عنه في مجال التوهيمات الميتافيزيقية ، حتى ولو بدا أن المسألة هنا أيسر حساباً باعتبار تعلقها بنظام مغلق لمجموعة من النقاط المادية ، ومعنى ذلك أن نغمض عيوننا عن حقيقة الأمر وهو أن التغير التكنولوجي يستخلص من مجموعة كبيرة من العناصر لا تقتصر على الحيز والمادة . « لو كنت أعرف ماذا سيكون العمل الرائع في الغد لأبدعته أنا » . ولم يجد واحد من أبرز خبراء الابتكارات التكنولوجية وهو دونالد أ. شون رداً خيراً من رد برجسون لكتب

يقول ، « هناك مسألة خاصة في كل نظرية تفترض إمكان التنبؤ بالابتكار . فالتنبؤ باختراع اختراع في حد ذاته ، يمثل هذا يحقق التنبؤ ذاته . أما أن نقول بأن نظرية معينة تسمح بالتنبؤ بالاختراع ، فإنه يشبه القول بأن النظرية تسمح بالاختراع » (٣٣) .

ولكن عندما نرتفع الى المستوى الأعلى وهو « التنبؤ التكنولوجي المعيارى » فإن التنبؤ التكنولوجي يظهر بوضوح في صورة العراف ، ويقوم بدوره في المجتمعات الحديثة . فالتنبؤ التكنولوجي المعيارى يفترض في الواقع إمكان تحليل كل عوامل الاستكشافات المقبلة ، وتوقع إمكان تطبيقها ، ورصد الحاجات التى ستسدها ، وبيان تأثيراتها على البيئة الاجتماعية . أى أن « مدى التحول التكنولوجي » يمكن أن يستكشف في إطار علاقته المستقبلية ، كانه واحد من أجهزة التفذية الرجعية التى تتبع على الأرجح تحقيق المعرفة الناتجة ، وتكون تلك المعرفة في ذات الوقت المسك والناتج للقرارات التى تنشئها .

كان الأمر هنا هو أن فن التنبؤ يتجه الى أن يستبدل نفسه بفن اتخاذ القرار ، وهو يحول الوجود المأمولة والتى تستنبط من الاتجاهات التكنولوجية الى أهداف اجتماعية . وهى « معيارية » على وجه الدقة لأنها تنبئ توقعاتها على أساس الأشياء التكنولوجية ، وعلى قيم يرتبط بها تحقيق الوعد ويتبنى عليها اتخاذ القرار بشأنه . حتى ليكاد المرء أن يصدق آمال نورنبيرت وايزر وكأنها قد تحققت فعلا ، بأن المعرفة التكنولوجية قد نمت لتضى حدودها وقصورها ، وأصبحت لا تعرف كيف تمد آفاقها من مجال « كيف تعرف » الى مجال « ماذا تعرف » (٣٤) . ولكن صورة المستقبل التى ترسمها تلك الخطوط التكنولوجية التى يمكن لطاقة الإلهام — حتى مع ارتباطها بالنماذج الرياضية — أن تتنبأ بها وأن يكون ذلك على درجة عظيمة من المعقولة . تلك الصورة مشحونة بانقيص المعاصرة ، أى أن عناصر الاختيار التى تنشأ عن تصوراتنا للمستقبل التكنولوجي لا يمكن فصلها عن الوقائع المذهبية المعاصرة .

ليس من شك في أن التنبئين التكنولوجيين — شأنهم في ذلك شأن العرافين الرومانيين — فيكونون أنهم يجعلون لانفسهم مهمة معينة هى تحديد البدائل ، وأن

Donald A. Schon, « Forecasting and Technological Forecasting » in (٣٣) Daedalus, p. 787.
Donald A. Schon, Technology and change, New York, Delta Book, 1967.

(٣٤) « هناك صفة أهم من « معرفة كيف » أى معرفة كيف نصنع ؛ ولنا نستطيع إيهام الولايات المتحدة بأن لها منها نصيب وافر ، تلك هى صفة « معرفة ماذا » ولقد بدأ بها تحديد كيفية تحقيق أهدافنا وتحديد غاية هذا الأهداف كذلك : من :

Norbert Wiener, The Human Use of the Human Beings, New York, Avon Books, 1967, pp. 260-261.

فى امكان المجتمع ان يرفض نبوءاتهم . ولقد كان الرومان على درجة ممتازة فى هذا الفن الذى يعتمد على تبين المدى الذى يمكن ان يشركه البصر بالمستقبل لحرية الفعل . كان يبدو وكأنهم يملكون وسائل تناول المستقبل والمصر ، حتى يبدو وكأنهم يسيطرون على المستقبل والمصر ذاته . ومن هنا اصبح « هؤلاء التكنولوجيا انفسهم » ، فى اخلاصهم للروح اللاتينية ، اكثر سيطرة على الشعائر والانصارات التى هم مرضة لها « لدرجة التحكم فى شهية الكنايكات القدسة وهى فى اقفاصها (٣٥) . مثل هذا نجده فى النبوءات التكنولوجية التى تستكمل بما يرتبط بها من قيم دعائية اذ كان لها ان تتحقق ، فهذه النبوءات تترك اقل الفرص للخلل بقدر ما تؤثر بفعل الكلام من المستقبل على القرارات التى تتخذ فى الحاضر . فخطوط القوى والتوجيهات التى تؤثر فى اتجاهات البحث العلمى يمكن تصورها على انها امور محتملة على اساس من القيم الحاضرة ، وهى تجعل ذلك التصور المستقبلى مرغوبا فيه ، وهى فى نفس الوقت تضى على توقع تلك الاتجاهات (النبوءات) احتمالا اكبر .

يقول اصحاب فكرة التنبؤ التكنولوجى المعيارى بأن « المسألة الهامة التى يجب ان نتذكرها هى تخطيط النظام بحيث يسمح عند توسيع افقه بادخال اهداف ومقاصد معينة كجزء مما يتوقع ، ثم تتحول هذه الاهداف الى عناصر فعالة ومؤثرة فى تحديد التفرعات التى يلزم ادخالها على الاوضاع العاصرة - وذلك باقتراح سلسلة من السياسات التى يلزم تطبيقها ، والسياسات المتصلة والتفاعة التى يلزم استحداثها - اذا كان للمستقبل المرتجى ان يترجم الى واقع معاصر » (٣٦) . هذه الوظيفة التوجيهية لاولئك العرافين المعاصرين لا تقل فى مضمونها السياسى من وظيفة العرافة عند الرومان . وكما اصبحت العرافة اداة فى ايدى اصحاب السلطة او المتطلعين للسلطة ، يرتبط بها قدرهم المقسوم من نجاح أو فشل . كذلك حال اصحاب « التنبؤ التكنولوجى المعيارى » يحلمون بأمل أن يصبحوا مركز قرارات الدولة يحددون اتجاهاتها ومقاصدها . وقد تساءل الفيلسوف « كات » ساخرا « كيف يكون التاريخ الاستنتاجى ممكنا ؟ » . الاجابة هى « اذا كان العراف ذاته هو صائم الاحداث ، ومنظم تتابعها ، وهو يروى قصتها مسبقا » (٣٧) .

Jean Bayet, p. 55

(٣٥) مرجع سبق الاشارة اليه :

Hanan Oubekhan, The Idea of a Look-Out Institution system Development corporation, Santa Monica, California, 1965. (٣٦)

H. Kant, «The Conflict of the Faculties» in the pamphlets on The Philosophy of History, Paris, A. Montaigne, 1947. (٣٧)

التنبؤ والبحث العلمى الحر :

التنبؤ التكنولوجى ، وهو يجعل من نفسه أداة للتكنولوجيا الاجتماعية (٢٨) ، لا يجتزئ بتفسير الاشارات التى تشير الى الاتجاهات الممكنة للبحث العلمى . انما يربط نفسه بتصور للبحث العلمى وللمجتمع يكون فيه البحث من المعرفة الجديدة مرتبطا بامكانيات تطبيق تلك المعرفة . والاقى « المعيارى » للتنبؤ التكنولوجى هو فائدته الطبيعية ، أى حيث يترجم الاكتشاف والابتكار الى مستحدثات لا تؤثر على علاقة البحث بموضوع البحث ذاته فحسب ، انما تؤثر كذلك على العلاقة بين نواتج البحث والكل الاجتماعى . أى ان طرق التنبؤ ووسائله ليست وسائل فحسب بل هى بالاضافة الى ذلك مذاهب تتحدد فى الاطار الذى يشتمل كذلك على جهاز البحث فى ارتباطه بموضوعاته وأهدافه .

اما البحث الحر الذى تكون نتائجه غير محققة للباحث الذى يجريه والدورسات التى تنفق عليه ، فيبدو نموذجا للحالة القصوى من الانحراف من مفاهيم الفائدة والمائد الاقتصادى . ولكننا نقر بأن نظام البحث العلمى الكامل يشتمل على نطاق ليس الى اختصاره او تقليل مداه من سبيل ، وهو نطاق يتسم بنبض الخطر والمفاجات . ويتقاضى حل المشكلة أن نفترض وجود تلاحم تام بين جهاز البحث العلمى والكل الاجتماعى ، والبحث الحر جزء من هذا التلاحم مع أنه أقل درجة فى مجال التصديق من الأنماط الأخرى للبحث . فإذا حددنا تحديدا مسبقا الأفراض التى يلزم أن يستهدفها البحث العلمى بالاضافة الى الأفراض الشاملة ، والمهام التى يجب القيام بها ، فإن التنبؤ التكنولوجى سيكون فى وضع يسمح له بتوجيه البحث العلمى الحر بحيث يلتزم بالخط الذى ترسمته لنفسها الأفراض الاجتماعية التى هو صاحبها ومرافها . يقول ابريك جانتش « ان التنبؤ التكنولوجى المعيارى اذا كانت نقطة بدايته هى احتياجات المجتمع ، فهو قادر على استيعاب البحوث الأساسية والافادة من توجيهاتها لأبحاث التقدم الاجتماعى ، على نحو ما يتم تطبيق البحث العلمى فى المجال الاقتصادى فى الصناعة » (٣٩) .

لا يمكن أن نتهم جانتش بالفشل فى طرح السؤال فى وضوح وحسم ، فالتنبؤ التكنولوجى المعيارى يتحدى فكرة البحث الأساسى الذى يتميز بسمات خاصة ، منها أن لا يمكن التنبؤ بتطوره ولا توقع خطاه المقبلة . هذه هى الفكرة التى يسميها

Olaf Helmer, *Social Technology*, New York, Basic Books, 1966 (٢٨)
Hasan Ozbekhan, *Technology of Man's Future*, Report SP-2494, System Development Corporation, Santa Monica, California, 1966.

Erich Jantsch, *Technological Forecasting in Perspective*, p. 60, see also, (٣٩)
«Technological Forecasting — A Tool for a Dynamic Science Policy, in *Problems of Science Policy*», Paris, OECD, 1964, pp. 113-123.

جائنش « حوصلة » العلم ، أى انطوائه فى برج عاجى منعزلا من تأثيرات العالم الدنيوى ، ويشير الى نموذجها الواضح فى كتاب توماس كوهن « تركيب الثورات العلمية » ، اذ يقول كوهن ، ان التقدم العلمى يشتمل على نوعين من الحركة : حركة « العلم السوى » الذى يتطور فى حدود الصيغ والقواعد الرمية ، وحركة العلم فى فترات الغوران والأزمة حين تشتمل الثورة بالمرءة الأفكار والرؤى « غير السوية » والتي تتخذ شكل الصراع بين الصيغ والقواعد القديمة والجديدة ، حتى يكتب النصر للأفكار الجديدة فيعترف بها ، وتصبح هى الأساس الجديد « للعلم السوى » (٤٠) .

ان الصيغ والقواعد الرمية تكفى فى حد ذاتها لتكون أساسا لاختيار موضوعات الدراسة ، فاذا اقيمت الجهود العلمى جدواه ، فان ذلك يرجع الى التحول الذى حوصل اليها فى اطار « العلم السوى » . من المستحيل التأثير على هذه العملية من الخارج ، وبالأحرى فمن المستحيل التنبؤ بالاتجاهات « غير السوية » التى تصبح فيما بعد مصدرا للصيغ والقواعد الجديدة . يقول كوهن « لقد دوجنا منذ أمد على رؤية العلم فى صورة الجهود الواحد الذى مايزال يتقدم رويدا نحو هدف ما تحدهه الطبيعة تحديدا مسبقا » (٤١) . ولكننا نقول بأن لا جدوى من أن نتصور أن هناك صورة للطبيعة كاملة وشاملة وموضوعية ، ولذلك فيجب أن « نبرر وجود العلم ونملا نجاهه فى زمان معين . اذا علمنا استبدال التطور مما نعرفه حقا الى الاتجاه الى ما نود معرفته » فان عددا من المعضلات التى تواجهنا ستختفى » (٤٢) .

هذا التصور « النقي » الذى يرفض كافة التأثيرات التى قد توجه العلم ومجراه إلا ما ينبع من مسأله ، على تقيض من التصور الآخر وهو « دمج » العلم فى النظام الاجتماعى . هنا نجد أن الواقع العلمى الذى شهده التاريخ فعلا يعلو على كل فكر نظرى من المعرفة ، كان ليس للمعرفة ذاتها من أهمية إلا بقدر ما يطوعها التاريخ . فاذا عارضنا هذه التصورات من أساسها فليس سبب ذلك أننا نجد لكل من التصورين مما شواهد ترتكز على الحقائق ، إنما يرجع ذلك الى أن هذين التصورين يرجعان الى مذاهب فكرية لا يمكن التوفيق بينها . كان الحوار يجرى بين أصحاب ، لأن كل معسكر يشير الى شيء يمكن تعريفه تعريفا مستقلا عن القيم التى تتصل به .

Thomas S. Kuhn, *The Structure of Scientific Revolution*, Chicago Press, (٢٠) 1962.

فى كثير من الأوجه تشبه الأمور « غير السوية » متذكرون مايسيه بالثيلايد « عقبات نظرية المعرفة كما لجد فكرة « النموذج المثال » غامضة لأننا نجد فكرة « عقبات نظرية المعرفة » محددة وثرية للدرجة أنها الأساس الذى يقصر تلك الأمور « غير السوية »

(٤١) المرجع السابق ص ١٧٠ Thomas S. Kuhn,

(٤٢) المرجع السابق .

يقول جورج كانجهام : « كل من الموقنين يتدل الى درجة معالجة موضوع تاريخ العلم كانه من موضوعات العلم » (٤٣) .

سواء كان الإدراك متأخرا أو كان النظر في العواقب سابقا ، فما يزال سوء الفهم واحدا . فإذا وجد المرء هنا وهناك فكرة الالتحام بين العلم والمجتمع وقد صيغت في كلمات مطلقة تشبه التفسيرات المثالية ، فإن مرجع ذلك الى افتراض أن موضع النظر في الحالين يمكن تحديده باعتباره موضوع علم من العلوم . أن فكرة العلم البحت المحتمى في البرج العاجي لدرجة أنه لا يصيخ السمع لموضوعات العالم الحديث ، تواجه تحديا من تطور العلاقات بين المعرفة والقوة ، وتعارضها أحوال تدخل القوة وعدم استقلال المعرفة ذاتها ، ويمسحها غياب حدود واضحة بين مراحل البحث العلمي المتصلة . ولكننا نجد هنا أن المتطلبات والاستجابات الاجتماعية التي يكون العلم موضوعها لا تطل تحليل ميكانيكا الدروب التي يسلكها العلم . نجد مثل ذلك في مجال التنبؤ بالنتائج الممكنة للعلم ، إذ هي لا تحدد تحديدا ميكانيكيا العمليات المطلوبة لتحقيق تلك النتائج . أن تطلع المتنبئين التكنولوجيين الى توجيه العلم ، وتوجيه المجتمع ، على أساس التنبؤ بالاتجاهات الممكنة ، لا يذهب بمعامل التشكك المرتبط بالاستكشاف والاختراع . والحق أن الفكرة القائلة بحتمية العلم الهادف والنافع ، وهي أساس تصور مستقبل العلم في ارتباطه بحاجيات المجتمع ، لا تؤدي الى تطبيق التقنيات المتاحة التي يمكن أن تصبح متاحة (٤٤) . لسنأ نسجع قط بالاعتماد على الحدس والتخمين فيما يتعلق بمستقبل النهج العلمي ، ثم اعتبار ذلك من الرشد ومما نتناوله كأساس علمي لما يمكن أن يتخذ من القرارات السياسية ،

Georges Canguilhem, *Études d'histoire et philosophie des Sciences*, (٤٣) Paris, Vrin, 1968

يشير في المقدمة ، ص ١٥ ، الى حوار بين ألكندر كويري وهنري جيرالد في مؤتمر عقد باسلفورد في يوليو ١٩٦١ ، عندما اتم جيرالد كويري بانه «مثالي» أي أنه يعتبر النشاط العلمي نشاطا نظريا وبأنه يقبل حقائق تاريخ العلم وهي واقع استقلال العلم من الأمور الاجتماعية (إشارة الى كتاب : Henry Guerlas : *Some Historical Assumptions of the History of Science*. A.C. Crombie ed., London 1963, pp. 797-813).

والرد في كتاب

Alexandre Koyré, *Études d'histoire de la pensée (Scientifique)*, Paris, P.U.F., 1966, pp. 362-361.

(٤٤) يقارن جاننش بالإضافة الى ذلك أفكار كوهن بأفكار دوج. هـ. سيو الذي يقرر في كتابه *The Tao of Science* إضافة الى المعرفة الغربية التي تعتمد على العقل بعض العناصر التي تتمتع بالعجيب الطبيعة . هنا يصبح الخلق العلمي « اشخاصا من الامعرفة ليس عقلانيا وليس الهاما ، انما لدنيا (العلم اللدني) . ليس هناك لمولوج الفضل من هذا على هذا الخط بين مجالات العلم والكهنة في التنبؤ التكنولوجي . ولعلنا نتسلط من الجسوى العملية التي يمكن أن يستخلصها التنبؤ التكنولوجيون من هذا كله .

R.G.H. Shi, *The Tao of Science*, M.I.T. Press, 1964, chaplev 9.

ليس لئلا هذا الأساس العلمى وجود ، والحدس والتخمين لا يفقدان صفتهم بمجرد
البعد من التجلّيات الإلهامية والاعتماد على أدوات رياضية .

حقا توجد بعض القراوات الاستراتيجية التى تأخذ شكل الحتميات المحددة
بلى المجالات التى يبنى تركيز الجهود فيها نظرا للنتائج التى تتوقع منها . فالدولة
التي ترفض فى تزويد نفسها بالقوة النووية يجب أن يكون لديها باحثون أكفاء قادرين
على حل مشاكل الانشطار الذرى ، ومتعمكون من علوم المفاعلات . مثال آخر
نضربه بموضوع البيولوجيا الجزيئية الذى أصبح الآن علما من « علوم المستقبل »
واضح المعالم . نحن نتوقع من دراسات مادة الحامض النووى فى غضون العقد
القادم نتائج هائلة تشبه تلك النتائج التى برزت فى مجال علم الفيروسات فى الثلاثينيات
فيما بعد اكتشاف الفيروس . ولكن هذا التحديد لا يمكن أن نعتبره تحديدا
موضوعيا ولا نهجا محددا للإمكانيات التقنية المستقبلية وآثارها على المجتمع جميعا .
ذلك لأن هذه التوقعات مهما تخفت فى صياغة رياضية مازال منذ البداية تزج تحت
وطاة القيم التى يشرّب بها واضعوها . يقول جانتش « ولعل المرء يستطيع التجرؤ
والتنبؤ بأن التنبؤ التكنولوجى سيصبح فعلا ومؤثرا على توجيه البحوث الأساسية
فى المستقبل القريب » (٤٥) . يستطيع المرء ولا شك أن يتجرأ ، ولكن إذا كان
للبحث العلمى الأساسى أن يتعرض للتوجيه تمرضا متزايدا ، فإن ذلك لا يرجع الى
أن الصياغة الاسمية للنبوءات الموجهة يكون لها فى الغد عزم احتمال أكثر من
احتمالها اليوم ، إنما يرجع الى أن ما تحدده النبوءات باعتباره محتلا ، سيتزايد
الخلط بينه وبين ما نعتبره مرغوبا فيه سواء كان ذلك صراحة أو ضمنا (٤٦) .

ليس فى تاريخ العلم فكرة البشر السابق بالمعنى الدقيق للكلمة ، ذلك لأن
البشر يوصف بأنه رجل لا يمكن القول بأنه ذهب ، إلا بعد أن يكون قد ذهب فعلا ،
ومثل هذا يقال عن التنبؤ التكنولوجى ، إذ أنه لا يتنبأ بالمعنى الرياضى والحتمى
للكلمة ، ومن لم لا يتنبأ بالفتوحات التكنولوجية والعلمية التى ستتحقق غدا ، أو
تتأثيراتها الاجتماعية ، إنما يمكن أن يقوم بوظيفة الدليل « إذا أصبحت كل الأشياء
متساوية » ، أى أن التنبؤ يخاطر بالعمل الذى يقول بأنه يقصده : أنه يقامر على
المستقبل . يقول جورج كانجلهم « أن الموضوع الأساسى لؤرخ العلم يمكن أن يتحدد

(٤٥) يقول جانتش فى مجال التعليل على نتائج « مشروع النظرة للخلط » : « أن فقدان التفكير
للمبارى يذهب بفائدة البحث الأساسى ويمضى المرء الى إغراض تطوير الدفاع الأمريكى » . كتاب
« التنبؤ التكنولوجى » ص ٥٤ .

هذا غير صحيح فى المقال الاول ، وأما فى المقام الثانى والأهم فإنه يتضح أن تعريف الفائدة يحمل
حنا معنى التعريف المسبق لما هو محتمل . من « مشروع النظرة للخلط » انظر تقرير س.و. شيرون
آخرين ، مكتب مدير بحوث ومعلمة الدفاع بواشنطن ، ١٩٦٦ .

بالقرار الذى يخص الموضوع بمجال من الاهتمام ويمدى من الأهمية (٤٧) . وعلى نفس النمط نقول بأن الموضوع الأساسى للتنبيه التكنولوجى لتحديد آفاقه بقرار من التنبيهين التكنولوجيين أنفسهم ، لأنهم يعالجونه فى إطار اهتماماتهم . فإذا كان التنبؤ التكنولوجى « معياريا » ، فليس هذا لأنه يجد بين يديه مجموعة جاهزة من القيم ، مختزنة فيما يمكن أن يسمى « صندوق الامكانيات » فى العلم ، تستنبط مسبقا على شكل صياغة للعلاقات بين التطبيقات العلمية والاحتياجات الاجتماعية ، إنما لأنه يصيغ بلون قيمه الخاصة المستقبل العلمى الذى يدمى التحكم فى مفاتيحه . ان المدى المعيارى للنبوءة ليس هو المدى الموضوعى والمنطقى والراشد للنهج العلمى . ورغم الأداة الرياضية التى تحيط بالنبوءة بها نفسها ، فان التنبؤ التكنولوجى لا يربط على كونه عنصرا من عناصر المدى غير المحدد المعالم الذى تتخذ فيه القرارات وتطبق . اذا قدم الأتبياء النصيح للأمير ، فعليهم أن يتأكدوا من صدق بصرهم بالمستقبل اذا استطاعوا هم أن يقوموا بتحقيق نبوءتهم .

الكاتب جين جاك سسالومون

ولد فى ميتر عام ١٩٢٩

يتولى أمانة المؤتمرات الوزارية العلمية لمنظمة الصناعات والتنمية الاقتصادية .

يشغل الآن منصب رئيس قسم الدراسات العلمية لهذه المنظمة دعاه فى عامى ١٩٦٨-١٩٦٩ مركز الدراسات الدولية لمعهد ماساتشوسيتس التكنولوجى لندوة دراسية فى السبيل والشئون العامة الأوروبية

للترجم : الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص

الاستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة

بمقام
راؤل ارجمان

ترجمة
د. زكريا ابراهيم

المرآة المهشمة

المقال في كلمات

إن الوسائل الآلية كالتصوير الفوتوغرافي والنسخ أحدثت في الفن ثورة عارمة ، فهل سيؤدى هذا الى تغير نظرنا له ؟ هذا هو موضوع المقال . ويرى الكاتب أن انتشار الأعمال الفنية ودخولها الى جميع المجالات وغزواتها الهائلة يبدو لأول وهلة مقلها واضعا من مظاهر التقدم ، ولم يخطر ببال أحد قط أن يضع موضع الشك أو المناقشة قيمة النعم التي منحناها إيانا الآلات في ميدان الفن . كما يرى الكاتب أنه في استطاعتنا الآن أن نتخيل مسبكولوجية جديدة في العلاقة بين المشاهد للأعمال الفنية وبين الأعمال الفنية ذاتها منشأها وفرة الصور التي حلت محل قلة الأعمال الأصلية ، تلك الوفرة التي جعلت العصر الذهبي للفنون المتاحة للجميع على الأبواب . كل منا يستطيع الآن شمن قميص أو وجبة طعام أن يقتني أعمال كبسور الفنانين ، وأن يقيم في منزله متجلا للصور حقيقيا لا خياليا . وتدلنا الملامح الرئيسية لهذا الوضع الجديد على بداية ثقافة فنية ديمقراطية عالية ، إذ أن فن التصوير الفوتوغرافي وتعدد الصور لم يكتف بإزالة الحدود الطبقية ، بل أزال كذلك الحدود السياسية والجغرافية .

ولا شك ان هذا غير ذوقنا الجمال أى ترتيب القيم فى نظرنا • ومن أبرز ميزات الفن المعاصر التقليل من قيمة العمل اليدوى • ويبين لنا الكاتب الفرق بين العمل الفنى الأصيل وبين صورته الفوتوغرافية ، فالعمل الأصيل لم يعد بعد نقله بالتصوير ذلك الشيء ذا الطابع الشخصى فى الشخصية الكاملة ، فالصورة الفوتوغرافية « تغدو » ، بالعمل الفنى الأصيل لأنها لاتحمل ما فى اللوحة المرسومة باليد من المميزات الخاصة • وتتجسدت الكاتب فى مقالة من العمل الفنى الأصيل والعمل الفنى « المقلد » ، وهدف الناس من زيادة المتاحف الآن واختلافه عن هدفهم فى الماضى • ويرى الكاتب أن الفنانين كانوا يفكرون فى المجد فى الماضى ، أما اليوم فالذى يشغل بالهم انما هو التجريد الدائم للأشكال والآلات والتعبير • ومن رايه أيضا أن انتشار الصور بالفزارة التى نشاهدها لايمكن الاعتراض عليه فنيا ، ولكن المهم فى نظره أن يقل الناس ، حين تقديرهم للفن ، متمسكين بالمعايير القديمة ، ولا يجرؤهم هذا النظام المصطنع الذى يجعل تقديرنا للفن مبتنيا على أساس جودة الورق المطبوع •

أدت الوسائل الميكانيكية والاقتصادية الحديثة الى انتشار المعرفة بالفن فى وقتنا الحاضر : فالتصور الفوتوغرافى والنسخ وكذلك الأسواق الجديدة التى افتتحت لرواج « الثروات الثقافية » قدمت بسخاء الكثير من مسود الأعمال الفنية لجمهور يتزايد عدده يوما بعد يوم • وهذه الثورة فى مجال نشر الفن تشبه الثورة التى حدثت قبل ذلك فى مجال نشر الكلمة والفكرة بعد اختراع الطباعة ، ولو اننا لانعرف حتى الآن ما اذا كانت هذه الثورة ستكون لها فى ميدانها ماكان للطباعة من الأهمية .

وعلى كل فمن الواضح أن الكتب التى تكتب عن الفن قد أصبحت الآن « وسيلة جماهيرية للاتصال » وذلك لسهولة تداولها وكثرة عدد قرائها بالقياس الى ما كانت عليه الأمور فى الماضى • فمنذ خمسين عاما لم يكن التنظيم الاقتصادى والوسائل الآلية تتيح الا للفرقة القليلة المحظوظة الاطلاع على الحياة الفنية وذلك عن طريق الأسفار التى كانت تكلف المال الكثير وتقتضى الوقت الطويل ، أما البقية الباقية من الجماهير فلم يكن أمامها كبديل للأعمال الفنية الا الصور المطبوعة التى كانت تفتقر فى كثير من الأحيان الى الاقنान والجودة • أما الآن فقد انتشرت الصور الفنية الجيدة عن طريق الكتب الشهيرة التى يتداولها الجمهور الكبير ، والمجلات التى تنشر فى

أعياد الميلاد والمناسبات الأخرى ، بهدف العناية لهدايا نافذة يراد الاعلان عنها ، صور الأعمال العظيمة لمشاهير الرسامين مثل الصور التي تعتبر عن مولد المسيح وغيره ، والمؤلفات الجيدة النفيسة . ولكن هذه الوسائل كلها تشترك في أنها تتبع لكل منها أن يلتقى بدنيا الفنون ويستمتع بها وهو في منزله أمام المدفأة ، ومن هنا فإنها تسهم جميعا في أحداث نفس التغيير .

وهدفنا الوحيد من هذا البحث هو معرفة ما اذا كانت نظرتنا وقيمنا ومشاعرنا تجاه الفن ستتغير بالتطور الذي حدث في انتشار الفن أم أنها ستظل كما كانت في الماضي .



من السمات الخاصة للعالم الذي نعيشه الآن هو أن صور المنتجات أصبحت أسرع انتشارا وأكثر عددا من المنتجات نفسها . ففي الماضي كانت تقوم علاقة مباشرة وعلوية بين الصانع والمستهلك . كان المستهلك يستطيع أن يشاهد الصانع والسلعة التي يصنعها ، بل وفي كثير من الأحيان الطريقة نفسها التي تصنع بها هذه السلعة ولم يكن يدرك تفهما إلا بعد رؤية أطوار إنتاجها ، في المصنع أو في الحانوت . أما اليوم فوسائل الاعلام والاعلان مثل الصحف والمجلات ودور الخيالة تنشر الصور المتعددة للسلع وهذه الصور هي التي تثير رغبة المشتري وتساعد على اختيار ما يرغبه ذلك أنه يشاهد الصور قبل أن يشاهد السلعة دون بحث أو عناء ، بل على العكس فصورة السلعة هي التي تبيح عن المشتري وتثير رغبته خوفا من أن يعرض عنها .

وهذه الحالة ولو أنها فريدة في التاريخ إلا أنها منطقية بالنسبة للاقتصاد الجماهيري السائد بيننا . فنشر صور المنتجات هي الوسيلة الوحيدة لرواجها . لكن هذه الأسباب ذاتها لها نتائج أخرى ، فعالم الفن يتميز اليوم بظاهرة مماثلة نشأت من تعدد نشر صور الأعمال الفنية التي لم تعد التقويمات السنوية الملزمة على الحواشي هي وحدها التي تنشرها ، بل أصبحت « الألبومات » والكتب والمجلات الدورية تزخر بها .

أثر الاقتصاد على نشر الفن :

والسبب في هاتين الظاهرتين إنما هو تطور الأسلوب الفني « التكنيك » . فلم يكن لصور الأعمال الفنية أن تتعدد وتكثر إلا بالتصوير الفوتوغرافي ثم بالنسخ وبعد ذلك بتحسين عملية الطبع وتجويها بطبع الألوان على الصور ، ولكن التغيير الذي

حدث في الحياة الاقتصادية كان من أهم الأسباب التي أدت الى هذه الحالة الجديدة ،
فزيادة دخل الأفراد وتوزيعه توزيعا عادلا بين جمهور كبير من «أصحاب الياقات البيضاء» ،
والعمال المهرة ، وتعود المجتمع «المجزات التكنولوجية» وريغته في الثقافة التي
دعما التعليم ، هذا التعليم الذي لا ينفصل عن التقاسم الاقتصادي ، كل هذا جعل
الجواهر تقبل على الأسواق الفنية وجعل العملية ، التي تخضع بضرورة حتمية ،
عملية مريحة . ونحن نرى أن كل تطور تكنولوجي - والتصوير الفوتوغرافي أحد الأمثلة
له - يبحث عن أسواق يروج فيها بضاعته ويخلفها في الوقت نفسه ، كما أن كل
تقدم موضوعي يفيد من التطور الأعم ومن مساندته له المساندة اللازمة الدائمة ، ولكن
في مجال حديثنا هذا نقول ان كل هذه العوامل مارست تأثيرها معا ، فالمدرسة بشت
في النفوس مشاعر الإعجاب بالفتون الجميلة ، وأوقات الفراغ تحاقت بعد انخفاض
مساعات العمل وازدياد أجر العامل وجميع وسائل الاعلام أدت عملها وأثارت في نفوس
الناس الحاجة الى استهلاك الفن ، ضمن حاجاتهم الأخرى .

وهكذا فإن انتشار الأعمال الفنية عن طريق تعدد نشر الصور يبدو للوهلة
الأولى مظهرا واضحا من مظاهر التقدم ، ولا شك أن الآلات والتجار قد ساهوا بهذه
الطريقة في تقدم الثقافة وأصبح هذا العمل الجديد عملا يوصف بأجمل الأوصاف ،
اذ يوصف بأنه عمل ديمقراطي ومنطقي ، ذلك لأن عامة الشعب من الذين لم يستطيعوا
بالعلم والبيدين عن ميادين الثقافة أصبحوا يشاهدون الأعمال الفنية العظيمة عن
طريق صور صادقة لها . كما أن الاستعانة بهذه الصور يدعمها ، في نظر الجماهير ،
تلك السمعة الطيبة التي تلحق بالتكنيك . فوفرة الصور تبدو أمرا بديهيا ، شأنها
إلى ذلك شأن الآلات الجديدة، فلا يشك الناس في قيمة هذه الآلات، وكما لها ويثقون
فيها كما يثقون في سرعة السيارات وسرعة الصواريخ . ومهما يكن فإن أحدا لم يخطر
بباله أن يضع يوما موضع المنافسة أو التشك قيمة النعم التي منحتنا إياها الآلات
في ميدان الفن ، وكأنه واحد من تلك الميادين التي تنتفع بالآلات توفر الوقت والجهد .

ان المرء أمام أجماع الآراء على أن لا يقوم الفنانون أنفسهم بنسخ الأعداد الكثيرة
من أعمالهم الفنية . وأمام منطق التطور أو أمام معنى التاريخ يخشى أن يوصف بسوء
النية أو بعدم المعرفة اذا ما أظهر مخاوفه من هذا التعدد ، ولكن هذا لا يهم فيجب أن
يتجر كل جديد الدهشة . وفي حقيقة الأمر فإن عالم المعرفة السهلة هذا لم يستكشف
أبدا . فلم تجرى دراسة لعدد المهتمين بالجدد بالفن ، ولا لتوزيعهم بين مختلف طبقات
المجتمع ولا لسلوكهم تجاه سبل المعرفة القديمة كما حدث عند دراسة عادة قراءة
الصحف : فكم من الناس وقع نظره منذ عشرين عاما فقط على صورة (الفتاة
الصغيرة ذات الصمامة) للرسم فرمى هذه الصورة التي نسخ منها أعداد
لا نهاية لها ؟ وعلى العكس كم منهم استطاع أن يشاهد العمل الفني الأصلي وأن
يكشف في مدينة دلفت ثم في لاهاي هذه « اللؤلؤة المنيرة » ؟ ولكن هذه المقارنة

الحسابية البسيطة التي تتردد كثيرا بالنسبة للأعمال الأدبية الكلاسيكية التي يعيد التليفزيون عرضها، ليس لها مكان في بحثنا هذا . كما أننا لانعرف العلاقة التي يمكن أن تقوم بين نسبة التردد على المتاحف وانتشار الألبومات . ولا يبقى لنا بعد ذلك إلا أن نفترض ونقارن ونستنتج دون أي يقين ؛ ولكن الأهم هو أن نفكر . والحق أنه لو لم يخاطر أحد من جيلنا بالتفكير في هذا الموضوع ، فإن شيئا ما قد يكون مآله الضياع بغير أن يكلف أحد نفسه معرفة هذا الشيء أو التحدث عنه « فالموجات الجديدة » قد تنسى ما كانت عليه تجربة اكتشاف النسخ الأصلية الفريدة المحفوظة في محراب الفن . عندما نتعود الالتقاء بهذه الأعمال الفنية العظيمة عن طريق الصور المطبوعة التي ينشرها الناشر ، أن معجزة تضاعف عدد أرغفة الخبز لم تحدث إلا مرة واحدة ، أما معجزة تضاعف عدد الصور فهي مستمرة مادام التاجر والمستهلك يرغبان في ذلك .

سيكولوجية جديدة بين الفن ومشاهديه :

ويمكننا منذ الآن أن نتخيل سيكولوجية جديدة في العلاقة بين المشاهد للأعمال الفنية وبين الأعمال الفنية ذاتها ، منشأها وفرة الصور التي حلت محل قلة الأعمال الأصلية . فالمعرفة والثقافة ، ونعني بهذا التعبير المعرفة التي يكتسبها المرء بمحض اختيلوه وخلال أوقات فراغه ، يمكن أن يختلف معناها في هذه الحالة . فنحن هنا لسنا في ميدان الأدب الذي ينقل كما هو مهما تعددت طرق النشر ، سواء نشر الأدب في كتب الجيب أو طبع في طباعت فاخرة فإنه دائما ثابت لا يتغير ، ذلك لأن الأدب ليس إلا كلمات والألفاظ ، وسواء كتبت هذه الألفاظ بطريقة واضحة أو بطريقة زخرفية ، وسواء كتبت على ورق الصحف أو على ورق فاخر ، فالأمر سيبان : ذلك لأن الكلمات والألفاظ لها صفة الدوام ، أو اللوحات والتماثيل ، هذه الأشياء التي لا بد لها من حين تشغله ، فلا يمكن للمرء أن يؤكد أنه يمكن أن تحل محلها الصور .



في باريس وحدها زار معرض بيكاسو أكثر من مليون شخص ، ومثل هذا العدد وفد على معرض يونار . وفي « القصر الصغير » رأينا الزوار يهرعون بأعداد هائلة لمشاهدة كنوز الفراعنة فكان ذلك انتصارا واضحا للمعرفة وحسب الفن ، ولم يكن يقل أبدا أن يكون انتقال هذه الجماهير التي سارعت إلى هذه الأماكن لتمتع نظرها بجمال الفن أمرا لا علاقة له بانتشار صور الأعمال الفنية التي مازالت في تقدم مستمر . فبعد الألبومات التي مازالت أسرارها مرفعة أصبحت الآن المجلات الشهرية التي يناسب حملها كل جيب تزخر بهذه الصور . وهكذا نجد أنفسنا ، بلا شك ، أمام ديكالتيك حقيقي للتقدم . فالكتب والصور الفوتوغرافية المتحدة تقود الناس إلى

المتاحف ، وهذه بدورها تعيدهم الى الكتب . والذي لا يستطيع المتحف أن يقوم به سيحققه الأليوم . فالعصر النهي للفنون المتاحة للجميع على أبوابنا .

ان كلا منا يستطيع الآن بثمن قميص أو وجبة غذاء أن يضيف الى مجموعته الخاصة أعمال يوسان أو ميرو بأكملها . وهكذا تتحقق « بيتنا وتحت اسقف منازلنا » كما لمنى بيان أنصار المساواة مساواة جديدة رائعة أمام الثقافة الفنية، وهكذا يمكن أن يكون لكل منا فى منزله متحف ليس خياليا بل متحف للصور وأكثر من ذلك متحف حقيقى. وإذا ما قلنا أن الأعمال الفنية مهمتها تزيين الجدران فانا نشاهد الآن عشرات الحوائث تعرض صوراً لأشهر الرسامين مرسومة على الورق أو النسيج أو الخشب بمقاييس تناسب كل بيت ولونها معتدل للغاية ، ان الناس فى الماضى لم يكونوا يؤمنون بالتقدم فى الذوق ، تماما كعدم ايمانهم بالتقدم فى الاخلاق . ولكن هذا كان خطأ فالذوق فى تقدم مستمر ، منتقل من البيوت البورجوازية الى المنازل الشعبية ، حيث حلت صور فان جوخ بروجل وبيكاسو محل الصور الملونة ونتائج الحائط بل وحتى محل الصور العائلية .

وإذا تأملنا الملامح الرئيسية لهذا الوضع الجديد وجدناها تدل على بداية ثقافة ديمقراطية منطقية عالمية .

ديمقراطية التسوق :

أما ديموقراطية التسوق فهي واضحة جليا فيها . ذلك أن انتشار الصور يزيل شيئا فشيئا التفرقة بين الطبقات . ولو أن التعليم وأوقات الفراغ وارتفاع مستوى الحياة ساعد على السير بخطى سريعة نحو التطور . ففى الماضى كان يجب على المرء أن يتنقل ويمتلك ويتلصقا ، فكانت الطبقة البورجوازية وحدها ، التى لديها الوقت والمال ، هى التى يمكنها أن تستمتع بترف التعريف على الأعمال الفنية . فكان الرئيس دى بروس (١) واسقف دير سانت نون والطبيب برجرية . وإشراف انجلترا يسافرون الى إيطاليا ويمكثون بها شهرا ، وكانت هذه مسألة مستوى معين فى الثروة ، وطريقة حياة تتيح لهم الوقت الطويل الخالى من العمل . ولذلك كان هؤلاء المحظوظون هم الذين يستعدون على أسرار الفنون ويتمتعون بها . وعلاوة على ذلك فقد كان للبورجوازية اثر واضح فى صيغ الأعمال

(١) قاضى وكاتب فرنسى عاش فى القرن الثامن عشر ، وله مؤلفات أشهرها وصف أسفله فى إيطاليا .

الفنية بصيغة مستمدة من طبيعتها الخاصة ، وكأنهم قد وضعوا لها لائحة خاصة ، باستثناء اللوحات والتماثيل المحفوظة في المنشآت العامة كالكنائس والمباني المدنية في القليل النادر ، كان الفن يصنع لكي يمتلك . ولقد أبدى البعض إعجابه بوجود بعض جامعي الأعمال الفنية الكبار في القرن الماضي من الفقراء مثل ولفردان الساماني ، ولاكاز الطيب . وجيجو ويونا المصورين ، ولكن هؤلاء « الفقراء » كانوا في الواقع بورجوازيين أقل ثراء من غيرهم من محبي الفنون من أمثال أندريه جرولت . ويقال أن دخل لاكثر كان يبلغ قيمته ٢٥٠٠٠ فرنك ، وهذا المبلغ لا يعتبر إلا ثروة صغيرة ، إلا أنه كان يعتبر ثروة على أي حال .

ولكن سهولة تداول الكتب والصور الفوتوغرافية حاليا وضعت حدا لهذا الظلم . وليس السبب الوحيد لذلك هو أن اثمان الكتب والصور لا يمكن مفارقتها بأثمان الأعمال الفنية نفسها ، أو أن عددها يتيح نشرها نثرا عادلا بين الناس . بل إن امتلاك الكتب يعتبر من زمن بعيد الخطوة الأولى نحو الارتقاء الى مستوى الطبيعة المثقفة ، فالقراءة في رأي سارتر مكافئة لأنها بقوة تأثيرها وقوة ضغطها على التعلم تدل على دخول المرء الى عالم الفكر .

وقد ساعدت الألبومات على الافادة من سهولة التداول هذه في ميدان جديد ظل حتى وقت قريب مقصورا على الطبقة ذات الامتيازات. فلم تعد الطبقة البورجوازية تستحوذ على الأدب منذ اللحظة التي لم يعد التعلم مقصورا عليها ، إذ سرعان ما انتشر المدرسون وخريجو الجامعات ، بل عمال الطباعة ، أما في حالة الفن فقد ظل منتميا الى مجال محدود مما يفسر وصف المثقفين ثقافة فنية بالتمالي . ولكن جيلنا الحاضر يرى بعين الأمل أو بعين الأسف نهاية هذا الوضع ، وهذا هو أول وأوضح أثر من الآثار المترتبة على ظهور أسلوب جديد في الصناعة وعلى أمل جديد في الاقتصاد .

ومما يريد من حدة هذه النتيجة وقوة تأثيرها أن التعليم يقدم الأفكار والكلمات أكثر من الصور والأعمال الفنية ، كما أن التربية المدرسية والجامعية تنصب على المعرفة الأدبية والعلمية أكثر مما تنصب على الفن . وهكذا فإن وظيفة المدرسة — كما تصورها للسياسيون والمفكرون — تركت للفن امتيازاته الأولى ولاشك أن هذا التفضيل كان راجعا الى تقدير صحيح للأولويات الملحة ، ولكن النشاط الذي دب في الأعمال ظهر في ميدان الفن لتعويض التأخر الذي حدث فيه واستكمال العمل

أما الاعلانات والدعاية التي تهدف الى بيع المجموعات ، فهي في هذا الصدد صريحة الى حد السذاجة : إذ إن الأفكار التي تود أن تبثها في النفوس هي أنها تجعل

من بيتك متحفا وتوصل الى الجميع تلك الأعمال الفنية التي كانت عزيزة المثال . وفي النهاية فإن هذا العمل لا يبعد الى الجمهور حقه فحسب ، بل يشير الى حدوث انقلاب في الامتيازات ، اذ أن الثقافة الجديدة ستكون أفضل وأكمل من الثقافة القديمة .

الثقافة الفنية في البيوت :

وهكذا فبطبع صور الأعمال الفنية وتجميعها بالألبومات تدخل الثقافة الفنية البيوت ، وهذه الألبومات التي يمكن تداولها يمكن أخذها أو تركها وتقليب صفحاتها ، وكذلك شرائها أو استعارتها بعكس الأعمال الفنية التي تتميز بأنها تساوى بين الجميع لأن الكل يستطيع اقتنائها . ويفضلها أصبحت الثقافة الفنية مثل القراءة تمارس في المنازل وحجرات النوم .

ولكن ليس هذا فقط ما يحصل للألبوم مكانته ، فاجتماعيا له المكانة الأولى بلاشك، أما ثقافيا فله المكانة الثانية . فقد حققت عملية النشر في ميدان الثقافة ما كان مستحيلا قبل ذلك وهو تجميع الأعمال الفنية بطريقة منظمة . فالمتحف له طريقة في اختيار ما يعرض فيه من تحف وطريقته هذه تقوم على أساس ترتيب التقييم الجمالية والتاريخية . والقطعة المروضة أفضل من القطعة التي لم تلق إعجابا لدى أمراء المتحف . ويقال « عمل جدير بالعرض في المتحف » للتعبير عن قطعة فنية قيمة . ولكن هذه الطريقة تخضع للوقت والصدفة ، فالمجموعات الفنية العامة هي مجموعات جمعت بينها مصادفات المنح أو الوصية أو الاستيلاء أو جمع بينها مصادفات الاختلاف بين أثمان القطع ومقدرة الأمان على الشراء . فمتحف اللوفر مثلا أقيم للاستجابة لتذوق عدد من ملوك فرنسا ، ووافقت عليه الثورة بعد ذلك ثم أضيفت اليه مجموعة لوانوار وكذلك الهبة التي قدمها كامندو علاوة على ظروف كثيرة أخرى شاركت في جمع تحفه وكانت فيها الصدفة ماملا له أهميته تماما مثل الإرادة والعقل ، فاذا أردنا مثلا مشاهدة صور مواقع أوسلو الثلاث فلا بد لنا من الذهاب الى لندن ثم باريس ثم فلورنسا . وهناك مثل واضح جدا لذلك . وهو صورة البشارة في آكس التي قسمت بين كنيسة اقليمية ومنتحف ومجموعة خاصة ، حتى المراسات التحضيرية من رسم وتخطيط نجدتها منفصلة عن العمل الفني في النهاية ، كما أن هذا العمل بعيد عن التفسيرات اللاحقة به فهنا لا يخضع شيء لنظام أو ترتيب وهما بداية كل علم ووسيلة كل منطق .

أما الكتاب فهو على العكس لا يخضع للصدفة التي تشقت الأعمال الفنية . ولكنه يجمعها على أساس منطقي خالص . فالكتاب يجمع الصور التي تعبر عن موضوع معين أو فترة من الزمن معينة أو حياة فنان معين لها معنى خاص تبعا لتسلسل

منطلقى . فلوحة سكريتا فولانت الثالثة بين ملبورن وريو وبودابست تنضم فيه الى
اى لوحة اخرى توافقها او تكملها طبقا للمنطق . لذلك ترى الكاتب يطبع فى ان يطبع
المهم من الموضوعات التى يقدمها ، وعلى ذلك فالترتيب منطلقى فيما يعرضه ، والنظام
الذى تظهر به الصور يعبر عن فكرة معينة . وهذه الميزة البارزة التى لاثبتتها اى
مجموعة من الاعمال الفنية الاصلية تبين لنا عملية الاعلان التى تقدم للجميع كنوز
الفن ولعمالة العظيمة وتوضح الضاويين التى تملن لنا عن « البوابات الرومانى او
« فلاسكس » بمعنى ان القارىء سيجد فيها كل ما يميز شخصية خلافة او جميع
الاحمال الفنية العظيمة لفترة ما او لبلد ما .

اذن فالمقارنة هنا ممكنة ويسيرة . فالكتاب بدلا من ان يتحدث عن الذكريات
وما يكتنفها من غموض يعرضها مقترنة بالصور ، فهو اذن الاداة الكاملة لثقافة معينة
فضلا عن ذلك فعلمية اختيار ما يعرض فيه انما يقوم بها احسن الاساتذة والمعلمين
المتخصصين ، فيعرض كنوز المعرفة لمجتمع القراء الذين تحرروا اخيرا من عبودية الفقر
او الغنى والذين هم اكثر الناس انصافا ونزاهة . وكما هو الحال فى كل وسيلة من
وسائل الاعلام نجد اختلافا ، وحتى نوعا من التوتر بين مجموعة اصحاب الرسالة
ومجموعة الذين يتلقون هذه الرسالة ، ولكن هذا الاختلاف فى صالح المعرفة نفسها .
وبالكتاب تنتشر الثقافة لا بالتساوى بين الجميع فحسب ولكن ايضا فى هذه المرة
للسالحي العام وللخير العام لا للشر او السوء . وهذا ما يسبب تشاؤم المتشائمين .

تصوير الفن حطيم الحواجز السياسية :

وماذا بعد ؟ ايجب علينا ان نبين ان فن التصوير الفوتوغرافى وتعدد الصور لم
يكتب بارالة الحدود الطبقيه بل ازال ايضا الحدود السياسية والحضرية والجغرافية؟
ان المسافات لم تعد طويلة كما كانت فى الماضى والاسفار أصبحت أكثر يسرا وأقل
تكلفة وأوقات الفراغ صارت أكثر طولا ومع ذلك فلو لم يفتح لنا الاليوم أبواب البلاد
البعيدة جدا هنا لبقيت هذه البلاد مجهولة لنا لا نعرفها الا على الخرائط . فالآلة
الفوتوغرافية لاتعرف المسافات بالنسبة للزمن والمكان والمجتمع . فبلاد الهند
والكسيك والقسطنطينية وفنون أفريقيا واستراليا لم تعد أسرارا يحتفظ بها
المتخصصون أو المستكشفون . فالكتب أصبحت تحمل الينا فى منازلنا كل قريب ،
تحمل الينا « بربرية » المدنيات المفلقة .

وقد غير هذا الأمر وحده ذوقنا الجمالى اى ترتيب القيم فى نظرنا . فالحرركات
الفنية الكبرى لاشك انها استلهمت كثيرا من الماضى فقد ردت الحركة الفنية فى عصر
النهضة اعتبار فن المصور القديمة ، كما أن الحركة الفنية فى العصر الرومانتيكى

استلهمت من فن المصور الوسطى . وهكذا بالطريقة التي أدركها مالرو تنبعت من جديد الثقافات البعيدة في الزمان والمكان يحتفظ بها في مبدع عظيم يقوم ببنائه كل شعب وكل جيل حسب تفكيره وآرائه . ولكن هذه الاضافة التي كانت قديما تحدث في أضيئ الحدود أصبحت تكسما منذ نصف قرن تقريبا . فالقرن التاسع عشر الذي ورث الرومانتيكية كان قد أعاد الى الحضارة التشكيلية المخطوط التي كانت سائدة في المصور الوسطى بادئا بالمخطوط الأقل قدما ، وكان هذا قليلا اذا نظرنا الى دنيا الفن الشاسعة الواسعة التي ظلت طويلا مجهولة تماما أولا تأثير الا الفضول ، كما أن الفن الصيني لم نحب به الا منذ عصر لويس الرابع عشر وكنا نمجّب بجمال اتقانه فنيا أكثر من إعجابنا بما يميزه . واكتشفنا بعد اخوان جوتكور العائيع الياباني في اللاكية و الانرو شيء لا يستحق الذكر .

وتدقق « البربرية » الحقيقي لم يحدث حوالي القرن الرابع أو الخامس لكنه حدث في القرن التاسع عشر تقريبا عندما فتح الغرب فجأة حدود أراضيها الفنية مستقبلا فن أفريقيا وإستراليا والمكسيك مستمرا في بحثه في الماضي الذي أسفر عن معرفته لفن النحت الروماني وعن شغفه بفن فرنسا القديمة ، كما دل عليه بحث قام به في الماضي جماعة من المتخصصين . وبعد أن زالت حواجز الزمن والمكان وبعد أن أنكر الغرب فكرة « البربرية » نفسها لم يمد ممكنا أن يكون هذا اللفظ له معنى وصلة في المصور القديمة وفي سينيّ وسمو ولكننا كثيرا ما ننسى .

وهكذا للمرة الأولى في التاريخ أو للمرة الوحيدة تنفتح إحدى الحضارات ، لجميع الحضارات الأخرى بغير إكبار أو غزو عسكري . بل على العكس فقد آمن الغرب وهو في أوج مجده بأن حضارته ليست الحضارة الوحيدة في العالم ، وأن القيم التي خلقها تنافسها قيم أخرى في بلاد أخرى ، كما أن السلام لا يوجد في ماضيه أو حاضره ولكنه قد يكون في جهة أخرى غير محدودة ، لكن هذا التطور الخطير الذي قد يكون الطابع الوحيد الأكيد لتفوق الغرب — لم يبدأ بانتشار الصور ولكنه بدأ بالسفر ويجمع صور السلالات البشرية من جهة ، ومن جهة أخرى بالمثل الذي استشعره الغرب تجاه الفن التقليدي . وقد بلغ هذا التطور أبلغ درجاته بسبب انتشار الكتب المصورة ، قبواسطتها وعن طريقها وجدت فنون الرنوج وتمائيل أصنام جزر الميسيكلاذ وزخارف أستراليا طريقها الى حياتنا اليومية وبواسطتها وعن طريقها فقدت الفنون البربرية البعيدة كل حظوة للفن الكلاسيكي .

وهكذا تقودنا الصور الى طريق لمعرفة لا يسوى بين الجميع فحسب بل لمعرفة عالمية ، فالتعصب الوطني يزول ويمحى أمام ظهور صور العالم الخارجى المطبوعة على الورق اللامع .



ومع ذلك فهذه الأقوال المثلثة لا تمس الا سطحية هذا الوضع الجديد ولا تفوس في أعماقه . فقد تناولت الظروف التي تنشر فيها الصور ونتائج هذا الانتشار وأعملت التأثير المعنوي وكان شيئا لا يحدث داخل النفس . ولكن الوضع هنا يشبه الى حد كبير التصيدة الشعرية المسووعة عندما حلت محل التصيدة الشعرية المكتوبة فلا يزيد الأمر عن كونه « قرأة » حلت محل الشعور السابق والمس الخاص . ويبقى بعد ذلك أن نتساءل : اترك مشاهدة الأعمال الفنية في النفس الأثر الذي يتركه الألبوم ؟ إذن علينا الآن أن نتأمل طبيعة الصور التي حلت محل الأعمال الفنية الأصلية .

ان وظيفة الصور هي أنها تحل محل غيرها من أعمال الفن : لوحات كانت أو رسوما أو تماثيل . ولذلك فانها تختلف عن الصور الاعلامية في الغاية والهدف ، اذ ان للصور في الإعلان ترجع الجمهور الى الشيء نفسه وهو وحده يسر النفس وبهجها ولا تتحمل لنفسها فائدة هذا الشيء . أما الصورة الفوتوغرافية لاي عمل فهي فعلى العكس خصصت لتخلق وحدها السرور . ومن السهل دون شك أن نعرف الصور الفوتوغرافية بمقارنتها بالأعمال الفنية الأصلية . ولكن يجب أن لا نكرر دائما ، لرغبتنا في الرجوع دائما الى الثقافة القديمة ، أن الصور تتميز بالتعدد والتكرار وأن الأعمال الأصلية تتميز بالندرة والوحداية . ان التمييز بينهما ليس مجردا الى هذه الدرجة .

ان الأعمال الفنية التي صنعت باليد واستعمل في رسمها المواد الوفيرة اختلفت ابعادها وتنوعت والتي خضعت لما يمكن أن تحدده حركة اليد أو مواد الرسم قد حلت محلها الصورة الفوتوغرافية ذات الأحجام المحددة والمساحة غير المستقرة . والصور الفوتوغرافية تحترم بالتأكيد النسب التي روعيت في رسم العمل الفني الاصيل ، ولكنها لا تحترم مقاييسه ، ذلك أن اللوحات المرسومة أو التماثيل المنحوتة ليست مثل النسب الرياضية التي لا تتغير عنمما تتغير الكلمات في مسائل تدرج تحت قاعدة واحدة . ان اللوحات المرسومة والتماثيل لها اتساع واقعي يعبر عن علاقتهن أساسيتين : فانها شكل رسم باليد بحركة تكن عظمتها ودقتها في ابعادها الأصلية . لقد نظرنا الى هذا الشكل من علياننا ولا نعتبر جوليفر ولا ميكروميجاس حكما في الأعمال الفنية لأن العمل الفني يسجل في نظرنا بأبعاده الخاصة التي تذكرنا بحال الحركة التي قام بها الفنان الذي أكمل العمل وبمكاننا الخاص الذي نشغل في الكون . فاعمال روبنز الفنية المشهورة لا تفقد أهميتها الا اذا اعتبرنا احجامها التي نشعر اذا ما نظرنا اليها بنظرة الإحياء وبقوة الحركة . ولولا الأبعاد الكبيرة للأشكال المرسومة على الأبنية الأثرية لما أخذنا ونحن نشاهد هذه الرسومات العملاقة لكن آلة التصوير سوت بغير عدل بين النقوش على الحائط والمنياير (الرسوم المتحركة الدقيقة) بين

التمثال والجوهرة • لذا فنحن أمام أى عمل فنى نمقد علاقة واصله بين حجم العمل
الفنى وبين حجمنا الطبىى •

ويجب ألا نعترض على هذه الملحوظة البسيطة بأن نقول ان حجم اللوحة فى
نظرننا يتوقف على المسافة التى تفصلنا عنها ، فنظرننا يعرف جيدا الدور الذى يلعبه
بعد الشيء فى تقدير حجمه ، وكذلك امكانية تحركنا أمام المنظر هذه الحرية التى
تحرمنا منها الصورة الفوتوغرافية لأنها أحلت النظرة المحدودة المحسوبة للأشياء محل
النظرة المتحركة التى لها دخل كبير فى مشاعرنا تجاه اللوحة • فنحن أمام اللوحة
نقترب منها ونبتعد عنها ، ننظر إليها نظرة كلية أو نظرة جزئية • هذه الحرية فى
الحركة تتلاقى أمام الصور الفوتوغرافية ، فالتصوير الفوتوغرافى يفرسنا أمام فيلم
لايعرف المصور عنه الا مستواه الثابت الذى اختاره منظرا شاملا أو منظرا مجزا فقطضى
بإختياره هذا على حريتنا بل قد يكون ايضا قضى على ذوقنا الجمالى •



تطور القضية على نقل الألوان :

مما لا شك فيه أن شيئا هاما قد تحقق بالتصوير الفوتوغرافى الا وهو اعادة
الألوان للرسوم وهواهم شيء فى الرسم • وقد تكون مضطربين اذا قلنا أن نقل الألوان
لم يبلغ بعد حد الجودة والافتان المنشود • ولكن هذا الأمر يبدو بسيطا فالفنيون
لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد وبدون شك ، فى السنين القادمة سيصل طبع الألوان
الى حد الكمال ، وقد قطعت الأمانة فى نقل الألوان والوفرة فيها شوطا بعيدا فى
طريق النجاح • فلنتق الاذن فى الآلات ولنؤمن بها •

والفرق بالتأكيد واضح بين الألوان التى تنقلها الآلات الفوتوغرافية الآن وبين
ماكانت تنقله من خمسين عاما ، فالألوان الآن أصبحت أكثر غنى وأعظم شفافية •
فالتقدم اذن جلى بين بفراط أن نقارن بين الصور الفوتوغرافية بعضها ببعض والاليجل
المقارنة بينها وبين الصورة الأصلية • فاللوحة الواحدة بنقلها الى كتب عدة تفسير
الوانها بل تختلف بين مصورين اثنين ومع ذلك لا ننظر الا الى لون واحد مما يؤدى
الى خداعتنا • ولقد أعلن أن التلفزيون الملون سيفتح أخيرا للجمهور المحروم من الفن
عالم الرسم ، ولكن نسي أن نقول اننا سنشاهد اللوحات بألوان جديدة لا هى ألوانها
الأصلية ولا هى ألوان الصور الفوتوغرافية •

هذه التأكيدات جيمهما ليست واضحة وتتركب نحن نفس
الخلط لذا ما قارنا التفاحة فى سلة الفاكهة بالطبيعة الميتة التى رسمها سيزان

لأنه سيكون عملا على غير أساس . إن ألوان الآلة الفوتوغرافية جميعها ليست ألوان الطبيعة ولا ألوان اللوحة المرسومة ، ولا يعني هذا طالما أننا نتكلم عن شيء آخر غير الأعمال الفنية : فمتنما تعرض الشاشة صورا ذات ألوان كثيرة مركبة وأحيانا غاية في الروعة من السهولة بمكان أن نعرف ونحس أن هذه الألوان كما تظهر لنا ألوان من صنع الصور وليست من الواقع ، فمشاهد العالم قد يصورها الفنان متحركة أو جامدة حسب الأحوال وحركتها ، وجودها لا يقلل من جمال المشهد بل إنه يزيده قوة وقدرة ، أما التصوير فهو شيء آخر . فالرسم عملية فنية وليست مادة أو موضوعا لعملية ما أو للترفيه ، وآلة التصوير لا تستطيع أن تسجل حركة « المخلص » على إحاطة كنيسة السكستين ولكن ميكال أنجلو نجح في ذلك . أنها تنقل الصور متبعة أسلوب المعادلات مدعية أنها ترىنا الشيء على طبيعته .

والصورة بالأبيض والأسود لا تعطينا الانطباع الحقيقي عن المشهد الأصيل ، إذ أنها لا تدعي نفس الادعاء وهي أكثر تجريدا من الصورة الملونة . ولا يهم في هذا الأمر أن يتبع نقل مجموعة الألوان إلى الأسود والرمادي والأبيض قواعد متفقا عليها.

فلذا حاولنا أن نذكر دقة الألوان وتجانسها في الرسم الفينيسي والهولندي ودقة خط ألوان المختلفة والصبغات لتأكدنا من أن أي آلة فنية لا يمكن إلا أن « تفقد » بهذه الألوان لأنه لا يمكن أن تنقلها كما هي . فضلا عن ذلك فاللون لا يمكن أن يوجد بغير مادة تحمله أو يلوپ فيها . والصورة المرسومة بالزيت بسمكه وبقيائه وبالضوء الذي ينبعث من ألوانه ومن أكوام الألوان التي كثيرا ما تعمل فيها المسكين فجأة كما هو الحال في لوحات رامبراند ، لا يمكن أن تتساوى بالصورة المرسومة بالجير بسطحها المنبسط ذي الألوان غير المتألفة أو بالصورة المرسومة بالألوان المائية التي توجد فيها مواضع بيضاء من الورق نفسه . وإذا كان فيلار وقد استعمل في رسم بعض لوحاته الألوان الزيتية فذلك بالطبع لم يكن ليحدث مثل تأثير اللوحات التي رسمها بالجواش . والاختلاف والتنوع في استعمال الألوان والمواد بين فنان وآخر إنما يتوقف على إدراك الفنان للاتحاد بين درجة اللون وبين المادة الملونة نفسها ، ولكل رسم بعد ثابت « مرئي » ولا يهم أن تكون المسافة ضيقة بين مساحتين متقاربتين حتى لا يخيّل للنظر أنهما تتداخلان ، فشغافية اللوحة المرسومة بالألوان المائية تعطى الإحساس بأن في عمق الصورة سمكا طفيفا جدا ولكنه على كل حال سمك . ولست الفنان ويريق الألوان يخلق لونا له موضوع وكذلك لونا له سمك ، وذلك يتلشى في الآلة الفوتوغرافية كما تتلشى الكسر في النسيج تحت المكواة الساخنة .

ويكفي أن نرجع إلى « الفنون الزخرفية » لنعرف الفرق بين الألوان التي تبدو متشابهة ولندرك أن اللون يكون فعلا وحدة مع المادة . ففي السجاد مثلا تختلف

درجات لون الصوف عنها في الحرير وكذلك فان طلاء الخزف أو الصيني لهما درجات في الألوان خاصة بهما . لذلك يمكن عقد مقارنة بينها وبين ألوان البالييت أو ما يصنعه بعض الرسامين . فمن يتحدث في الواقع عن المقارنة إنما يتحدث عن الاختلاف .

ففي فن التصوير اذن تبدل بالضرورة الألوان ، ولا يهم في بعض الأحوال أن يكون المصور قد اهتم بأن ينقل الصورة على التيل لأن الأصل مرسوم بنفس الطريقة . وما هذا العمل الا خداع للعين أو بالأحرى خداع للنفس . وعلى وجه الدقة يبدو أن آلة التصوير ترتكب ما ترتكبه اللغة في « تسمية » الألوان .



ونحن نرى أن أوضح مثل للتغير الذي يحدث للصورة المنتقلة بآلة التصوير هو اللوحات التي استعمل الفنان في رسمها المواد غير المتجانسة : ولمدة أربعة قرون تقريباً كلما فكر الفنان في رسم صورة ما كان يمر عنها بالألوان الزيتية . هذه الألوان التي لا تستطيع آلة التصوير نقلها بدقة ويسر تفرضه على اللوحة تماسك المادة . ولكن بعد ذلك رأينا جرى وبيكاسو ويراك يلصقون على اللوحات التي يرسمونها دلبة تبغ أو قطعة شاش فيبرزون قيمة الشيء الحقيقي لأنه غير متجانس، ولكن آلة التصوير تسوى هذه الفروق الأساسية فهي تقضي على الاختلاف الأصلي في اللوحة .



ونستطيع أن نقول أن النقد الذي يوجه لعالم الفن الجديد إنما هو نقد تأثري نشعر فيه بانجاز هواة الفن البرجوازيين . وعلى كل فهذا النقد لا يقوم على أساس سليم .

لكنه يصل الى مفهوم على درجة كبيرة من الأهمية فما أن يقضى على التخانة وعلى المادة وينقلب نظام الألوان وتزول نسب الأبعاد ، حتى لا يصبح العمل الفني « شيئاً » بل يدخل في عالم التجريد وفي عالم المعاني الخالصة . فإذا ما اختلف أثره أيضاً عن أثر اللغة فالسبب هو أنه ما زال يدرك في نفس اللحظة وليس في تتابع الكلمات . وتدخل تقنية التصوير على عالم الفن اصطلاحات مالية ومنطقاً للحقائق ، شيئاً يشبه الاصطلاحات الرياضية الغافلة الأسماء . فالعمل الفني عندما يكون فريداً قائماً بذاته يعتبر شيئاً غريباً جداً . أما اذا تعدد وتكاثر عدده فانه يصبح مجرد شارة وعلامة .

ويكفي أن ندرك أنه فيما يتعلق بالذوق الجمال المعاصر قد اختلفت كل قيمة متعلقة بالحركة وبالمهارة وبعملية الخلق المادية نفسها . ويمكن لفوسيون

أن يحدد مزاجاً « حركة اليد » ولكننا لانجد فى ملاحظات مالرو اى إشارة الى الحركة عامة ولا الى الاتجاه الحسى فى العمل المجسم . فحوادث الزمن ، كما جاء فى تأملات مالرو حول اى الهول تبدو له أهم من العمل نفسه ، واصبح الفنان نفسه صافية متصلة بالتاريخ طبعاً ولكن بالتاريخ الشامل والتاريخ الجدى الذى يتصادم فيه المصير والحرية . ولم يعد الأمر أمر المصير اليومى والنضال مع المادة الساكنة المعارضة بل اصبح أمر اعتراض الضمير الأبدى . وبالطبع لم يكن الأمر مصادفة أن يمدح مالرو التصوير الفوتوغرافى .

لذلك فالفنانون لم يقبلوا أن يظلوا متأخرين . فمن أبرز الصفات للفن المعاصر بغير شك التقليل من قيمة العمل اليدوى وسوف نبحت بغير جسدوى فى أعمال مارسيل ديس أو روشنبرج أو كالتلر أو سيزار عن بصمة الأصابع الحديثة كما بقيت بعد قرون طويلة فى لوحات فنشى أو بوسين .

هل الصورة الفوتوغرافية كافية :

وبعد ذلك يجب أن نذكر أن قرارة الصور التى تحل محل رؤية الأعمال الفنية الأصلية تقضى على جانب من المعارف الفنية .

وقد كان من أبرز صفات « الخبير الفنى » اذا اعتبرنا الثقافة التقليدية أن يتعرف على القطعة الفنية أى أن يقرر من هو الفنان الذى رسمها . والصور الفوتوغرافية غير كافية لايجاد هذه الصلة . وعلم الصور هو فقط إحدى الوسائل لهذه المعرفة ، فاختيار الموضوع وتفسيره بالنسبة لهذا الأمر يعتبران « من هؤلاء الأصدقاء المزيغين » على حد قول أساتذة اللغة ، والتعريف لأى عمل نقل هو أن عمل النقل حتى ان كان النقل نقلاً عن صورة ، يحتفظ على الأقل ببعض خطوط من الأصل المنقول عنه . فالشئ الوحيد الذى يملكه الفنان ولا يتنازع فيه أحد هو « الكتابة » أى انسجام وتجانس وولام الخطوط والألوان تسجيلها حركة اليد بعد أعمال الفكر بطريقة لا تنسب الا لشخصية تاريخية واحدة . فالتشابه بين النماذج المادية والتجاسس فى التركيب والميل الى مواقف معينة واختيار مجموعة الألوان ووجود بعض الأشياء الإضافية المكملة للعمل وحتى توزيع الضوء ، كل هذا تستطيع آلة التصوير ان تعطى عنه صورة صحيحة الى حد ما ، ذلك كله ليس الا اشارات لا تىدى الى فروض . والخطوط فقط المباشرة لحركة اليد فى مميزاتها الخاصة هى التى تؤدى الى التحقق من الشئ ، وبغيرها لا يتضح الأمر ولا يكون للتعرف على الأعمال الفنية معنى . واستعمال كلمة

« الكتابة » تبين طبيعة هذا العمل العقلي فنتعود التعرف على العمل الفني الأصيل كشيء شامل محسوس كما تعودنا التعرف على صوت أصبح مألوف لدينا .

وهكذا فإن العمل الفني الأصيل يعد أن نقل بالتصوير لم يعد هذا الشيء ذا الطابع الشخصي البحت الذى له شخصيته الكاملة . فننظر للصورة الفوتوغرافية نتأملها فهي لا تحمل ما فى اللوحة المرسومة باليد من المميزات الخاصة . فإذا نظرنا الى إلتصايل التي لم تكمل ليكمل أنجلو والى اللوحات التي رسمها لدهشنا للتشابه الفريد بين الخطوط التي أحدثتها الريشة على اللوحة وبين الخطوط التي أحدثها القلم فى الرخام . فمن سليلحظ ذلك وهو ينظر الى الصور الفوتوغرافية لهذه الأعمال ؟

وعلى العكس فالتعود على رؤية الصور الفوتوغرافية لا يحدد الا أسلوبا جديدا يختلف عن التثيت من حقيقة الشيء . وهذا الأسلوب الجديد ماهو الا معرفة ما استطاع الفنان أن ينقله من ميزات الى تلاميذه وأتباعه والناقلين عنه . والألبوم يسوى بين الأعمال الفنية بطريقة تكون أحيانا غير منطقية ، ففي النهاية تكون صورة العمل الفني المقلد لا تختلف عن صورة العمل الفني الأصيل . والكتاب المصور يثبت بطريقة لا تقبل النقد حقيقة الشيء بالشرح المرفق للصورة وبالبيانات والطريقة الأولية لجمع الصور فى الكتاب . وهى بالطبع جديرة بالثقة . تضمن التحقق من الشيء . والنظر هنا ليس له دور لكن اذا اخطأ المصورون فتنسب الصورة بالطبع الى فنان آخر غير صاحبها دون لمكان تصحيح الوضع .

وفوق ذلك فالاحساس الشخصى الذى يجعلنا نعرف العمل الفني الأصيل نراه قاصرا على عدد قليل من الناس وذلك لأنه لا يمكن الا نتيجة تجربة خاصة تمتزج فيها البدئية وسرعة الإدراك بالمعرفة . وهذه الدراية لا تتوفر كما قلنا فى الجميع حتى ولا فى عالم الثقافة التقليدية . ولكن الصور الفوتوغرافية لا تقضى فقط على هذه الدراية ولكنها أيضا توجهنا الى عالم آخر يتغير فيه نظام القيم . وهى بشير شكك تحترم عالم الصور ولكنها « تفقد » بالعمل الفني الأصيل لاتها تقلب نظام القدرات التي يمتلكها العمل الفني .

أما بالنسبة للرسم التقليدى فالالة الفوتوغرافية تحتفظ بالصفات الجيدة لصناعة الصور وإذا نظرنا الى الصورة الجانبية للمرأة ذات الأنف اليوناني لبوسين أو للشكل البيضاوى القصر للوجه فى لوحات بيرو ديلا فرنسيسكا وحركة الناس فى رسومات أفيركامب لوجدنا ذلك جليا واضحا . ولكن ذلك لا يكون الا فضا للمشاعر الجميلة حيث اننا نقول كم نحب أن نجلس تحت هذه الظلال ، أو ما أجمل ابتسامة

هذه المسألة ، أو ما أروع هذا الطفل ، وعم تؤثر في نفوسنا . وهكذا تخدعنا الصور وتضع أمام أعيننا نظاما دون ميرر للأفضليات ، لأن عظمة الأشكال وتوزيع الأحجام والحركات التي تعبر عنها الخطوط والمسامات على مساحة اللوحة تضيق في التصوير الفوتوغرافي الذي هو على نمط واحد .

ومما لا شك فيه أن تعودنا معرفة اللوحات المرسومة عن طريق الصور الفوتوغرافية يفسر لنا حظ بعض الفنانين في أن يحوزوا إعجاب الجميع ، فرشاقة العذارى الفوطية ودقة الأحاسيس في الأعمال « الأولية » ووفرة الورد والوجوه في لوحات بروجيل من باقات الزهور والأعياد فيها مميزات حافظت عليها وأفردها الصورة الفوتوغرافية ، تجعل الناظر يفتتن بها ، وبالعكس فالتوتر الداخلي الذي تحدته لوحات بوسين والافتتان العماسي الذي تسببه الألوان والأشكال في لوحات روبنز تتحول في الصور الفوتوغرافية إلى أوضاع لأشخاص جامدى الحركة لا يميز بينهم ولا فرق ، وإلى تشنج والتواءات سيئات بدنية ، ومع ذلك فالشعور بالإعجاب الذي توحى به الصور الفوتوغرافية يتفق مع الشعور بالإعجاب الذي تحدته اللوحة الأصلية ، ولكن الذي يسبب هذا الشعور ليس واحدا في الحالتين . فإن المشاعر الرقيقة التي يعبر عنها شاردان في لوحاته وليس مذاق العجينة التي ينحت منها تماثله مبعرا من الضموم والسكون هي التي تفتن الأوفياء الجدد للفن .

وهذا صحيح لدرجة أن آلة التصوير بابتكار جديد تظهر في الفن التجريدى طابعها الزخرفي الخالص وكل شيء يحدث كما لو كانت اللوحات المرسومة قد تحولت إلى صور مسطحة بمقاييس مقننة تقسم للخيال جدولا بموضوعات معينة وبترتيب انخاص في الألوان والأشكال فلا يبقى أمانا إلا أن نعيد استعمال السجاد واقماش المزخرف على الحائط .

وهكذا فالصورة الفوتوغرافية بتأثير صفاتها الخاصة أبدلت شيئا شيئا بمعرفة مجموعة العوامل التي توجد هذا التجنيس الداخلي والشخصي الذي كان لأجيال المحبين للفن الطريق الصحيح للحكم الجمالي ، أبدلت بها الاعتراف بمجموعة من الشارات والعلامات تبين عادة العمل الفني أكثر مما تترجمه .

ما هو العمل الأصيل ؟

إن كلمة « أصل » تثير هنا مشكلة من المشاكل التقليدية في تاريخ الفن وفي تاريخ علم الجمال . ماهو العمل الفني الأصيل ؟ وهل من الممكن معرفته كله ؟ ما هي

الصفة الوحيدة المطلقة التي تميزه عن العمل « المقلد » ؟ كل هذه الأسئلة تخطر
ببالنا ان نمودنا الرجوع الى الصور .

« فالأصالة » في حد ذاتها فكرة معقدة تستخدم عادة بغير تفكير عميق تطبق
على العمل الفني كشيء . ومعناها أن هذا العمل الفني صنته يد فردين . لكن هذه
الكلمة لا تأخذ معناها الحقيقي الا بالمقارنة بين العمل الاصيل والعمل المنقول ، بين
المتسوخ وبين المقلد .

ومما لاشك فيه ان اقتصادنا لولا ما أعطاه للعمل الفني من قيمة في الاسواق
ومعاملته معاملة الملك لما كانت فكرتنا عن الأصالة كماهي الآن ، فالمذنيات البورجوازية
ومذنيات الملكية الخاصة والتراث هي التي صنعت شيئا فشيئا هذه الفكرة . ان
العمل الفني الاصيل « أغلى في الثمن من العمل غير الاصيل وهو وحده الذي يساوى
ثمنه . وتقرر الكلمات التي تتردد في أحاديث هواة الفن أو التي تكتب بها كتالوجات
البيع ذلك فيوصف العمل الفني بكلمات « نادر » و « نئى » و « فريد » وتفسير
الكلمات طبقا للغة التي اتفق عليها الى درجات التاكيد من « أصالة » العمل أو غالباً
من « علم التاكيد » لأنها تتضمن حكماً على ثمن الشيء . ومن هنا اذن ادانة العمل
المقلد « المزيف » ادانة معنوية لا ادانة جمالية حيث أن فيه غشاً في السلعة وسلباً
لنقد المشترى . أما الصورة التي نعتز بها صورة للأعمال الفنية الاصيلية ولا
نفسى الا في الشعور الجمالى فهي بريئة من هذا الالم العظيم .

لكن التمييز بين العمل الاصيل والعمل « المزيف » لا يحمى فقط من عمليات
الاحتيال لسلب النقود لانه لايمس فقط النواحي المالية بل يمس أيضاً المعرفة وربما
اللذة وحتى ذلة التاريخ . وهى عملية تمس أعماق نفوسنا وما يحيط بها من غموض
يبعث الفلق فينا . والتوصل الى معرفة « أصالة » العمل الفني عملية غريبة حقاً .
لذا اردنا اثبات نقطة معينة في التاريخ فطينا بدراسة الوثائق مسلسلة ، وبالاهتمام
بتقديم الأدلة وبمقارنة شهادة الشهود ، ومع ذلك فهذه الخطوات الضرورية لاتقلل
من قيمة حكمنا على الشيء ، فنحن نقول : هذا العمل قام به فلان في عام . . ومع
ذلك فهناك ما هو أهم . وعلاوة على ذلك فالتاريخ يمكن ان يكفى بأن يعرف أن العمل
الفني الرديء يجب ان ينسب الى فلان صغير ، أما التفكير الجمالى فيتطلب أن يكون
الحكم على « أصالة » العمل هو حكم بقيمة هذا العمل ، فالعمل الفني الجيد يجب أن
يتصف بما يوحى به من مشاعر بعيداً عن كل تخيل عن الحقائق . ولكن في الوقت
نفسه فإن صفة العمل الفني وهو الشيء الملبوس أى الفريد تضمه بالضرورة في مكانه
من التاريخ بحيث ينوب تقدير هذا العمل الفني ضد أى منطق في عمليتين عقليتين
مختلفتين كل الاختلاف .

أكثر من ذلك فإن التأمل وحده في لوحة أو في تمثال يمكن في لحظة قصيرة
من لحظات الضمير ، أن يعيد الى عقولنا صور الماضى وأن يخلق بيننا وبين التاريخ

انصالا ما . فالأعمال الفنية مثل كلمات رابليه الخالدة تعيش بعد وقتها لا تموت أبدا ، وإذا كنا على استعداد لسماعها دائما تشير إلى ما كانت عليه وحتى إلى ما كان عليه كاتبها وزمن كاتبها فهي وحدها التي تفتح أبواب الماضي الحقيقية . انها لا تنص ولا تميد البناء ولا تلجأ لا إلى وساطة العقل ولا إلى وساطة اللغة . فعلماء رولان لا تصف المصور الوسطى كما يصفها أوجستين تيرى أوبران . انها تكتفى بأن تكون ، وأن تظهر لأهمنسا تذكرنا بوجود شيء أتى من وراء المصرفة ، من وراء زمننا وما وراء المسالم الذى يعيش فيه . ومع أن الأعمال الفنية تأثرت فى مظهرها بفعل الزمن وتأثرت أيضا فى أنفسنا بالطريق الجديد الذى يتخذه فكرنا للوصول إليها فقد ظلت شبيهة بما فعله وفكر فيه فى ماضى بعيد رجل حق يصل فى بيئته الخاصة ليقدم حقيقة مازالت حية للآن .

ولما تحولت هذه الأعمال إلى صور مطبوعة ليس خلفها الأطهر الورقة التى طبعت عليها الصورة فقدت هذه القدرة . ولو أنها مازالت تستعيد وتحكي التاريخ ، إلا أنها لم تعد تفتح النافذة على الماضي وأصبحت نافذة من النواذر تربنا الملابس والاكسسوار وبعضا من أفكار الجماعات . ويمكن أن تحلى بها الكتب المدرسية ، ولكنها لم تعد تستطيع أن تحقق النضرة الوجودية للقاء .

العلاقة الزمنية بين الفن ومشاهده :

ونحن الآن لانتاقش فقط قضية التاريخ ولكننا نناقش أيضا قضية خبرتنا . فالصورة كما تقضى على مقياس العمل الفنى بالمكان فإنها أيضا تؤثر فى العلاقة الزمنية التى كانت تقوم بين المشاهد وما يشاهده .

قديما كانت معرفتنا بالعمل الفنى عبارة عن لقاء به يعمد أحيانا ويسبقه الأمل والتخيل . وأحيانا كان يحدث فجأة فى منعطف إحدى القاعات . وكان أثر هذا اللقاء أقوى فى النفس لأنه غير منتظر ، ثم تتحول المشاعر إلى ذكرى تبقى فى النفس حتى يأتى لقاء جديد ، لقاء بنفس العمل الفنى أو لقاء بعمل آخر . ولقاء لقاء بعمل لنفس الفنان أو مرتبط بالعمل الأول يصله أحيانا غير مفهومة فإنه يحس المشاعر الأولى فتزدهر الذاكرة وتفتح لعملية الإدراك اللاحقة بعدا ثالثا أكثر عمقا . فأي نوع من الألبومات يستطيع أن يحقق لنا أوقات الانتظار هذه وأوقات الفرح وهذا التعاقب ما بين الرؤية والذكرى وهذا النسيج الزمنى الموزون المصنوعة منه العلاقة التى تربطنا بالأعمال الفنية ؟ إن سهولة نسخ الصور وطبيعتها تتحول ضد مستعملى هذه الصور ، فالكتاب المصور يخلق من جديد نداء بقاءه ويطيحها لنا بالقراءة نفسها ، ولكن اللوحة

الفنية لاستطيع ان تحيي المدة الزمنية الا في نفوسنا طبقا لنظام مشاعرنا المتتابة ،
وبغير هذه الحركة الداخلية فانها تضعيع في عالم النسيان الادبي .

ولذلك فان الصور تعرض لنا تبعا لاختيار ونظام محددين مقدما ولمرة واحدة .
وهذا الاختيار وهذا النظام لا دخل لنا بهما بل قام بهما غيرنا وليس من المؤكد أننا
ندرك ذلك . وحقيقة أن المتحف أيضا يختار المجموعة الفنية التي يعرضها ويفرض
عليها اختياره ولكن هذه المجموعة بالنسبة للمشاهد لاتنفصل عن نزعه البطينية خلال
غاية من اللوحات المروضة تجول فيها العين تحفظ وتتردد ثم تسود للنظر .

وعلى العكس فقد تجنب الناس بإقتضار الصور الشكوك التي كانت تنتابهم اذ
بعض المعلومات والتردد الذي كان يحدث في عملية سرعة الإدراك والمقارنة والتي كانت
تسود بين الناس في زمن اعتادوا فيه رؤية الأعمال الفنية وتلقاها . وتعرض الصور
بالأسماء التي أعطيت لها . وقرابة كتالوجات المتاحف أو المعارض تدل على أن انتساب
العمل الفني أو تاريخه كان نتيجة لأبحاث وأخطاء كثيرة اكتشفت واقتراضات
متتابة . فحكمنا على فنان ما أو لوحة ما أو تمثال ما أننا نبني شيئا فشيئا على مهل
ونظام الأفضليات الذي تضعه ، قد لا يتحقق له دائما صفة الدوام . وقد استطاع
الآلبوم أن يبذل على مهل الشكوك والمراجعات المتتابة للمعرفة والنوق بالبيانات
المؤكدة النابتة . والآلة الفوتوغرافية لا يتوقف كرمها وسخاؤها على كثرة الصور التي
تعرضها ، بل يظهر كذلك على طريقة التغليف الخاص التي تقسم بها ، فهي مثل
المنتجات الصناعية تقسم ويلصق معها بيان بالنوع وتوضيح لطريقة الاستعمال .

ومما لا شك فيه فان المتحف ليس هذا العالم الذي يشعر فيه الانسان بالحرية
الخالصة أو على الأقل ليس كذلك بالنسبة للجميع وليس هذا الفردوس المفقود الذي
يشعر فيه الانسان أنه يستطيع أن يحكم على الشيء دون ما اجبار أو اكراه . كيف
لا يجب مثلا زائر اللوفر بالجيكوندا ؟ فقد جاء اليها مدفوعا بشهرتها بالتعليم الذي
تعلمه من التقاليد الجماعية القوية غير الواضحة ، جاء مأخوذا بحكايتها ، جاء ليرأها
ويتأملها ، ولكن الصورة النقلة بقوتها وسلطانها استطاعت أن تثبط من حزمنا في
حكمنا الشخصي على الشيء وتحدد لنا نظاما وضمته مسبقا . فهي تقدس ما تعرضه
وتخصصه فيشعر الناس وهم يشاهدون الصور الفوتوغرافية بمشاعر آلية غير منبشة
من النفس وذلك لأن الآلة فرضت المساواة بين مشاعر الناس جميعا فلم يبق شيء يجعل
ولا حكم يحكم به . وانتهى بناء مهبط الفن بعد أن أخذ مكانه على أرفف المكتبات ،
فلنتوجه اليه ونتل له الصلوات في مكانه الجديد . . . لقد بدل الألبوم تأمل العمل
الفني والاعجاب الذي يولد عن لقاء مباشر بتأمل واعجاب صناعيين غير حقيقيين . فما

استحق أن ينشر يجب أن « يكون » جميلا وهذا الشعور بالواجب غريب عن القارئ
بالجمال .

وأخيرا فإن الكتاب يعول الفنانين إلى أصنام فاعمال الفنان تدل على تطورات
حياته ، ومن محاسن الصدق أن حياة أكثر الفنانين فيها مواقف مثالية مثل هدا
تكبد الفنان ظلما وعدوانا . أو حياة غريبة تقود إلى الجنون ، ومن هنا نرى طريقا
جديدا مزجيا لمعرفة الفن . فمن ناحية ينشر الألبوم انعكاسات للأعمال الفنية ، ومن
ناحية أخرى يحكي لنا الشريط المرسوم حياة الفنانين . قام تصد لوحات
فان جسونج هي التي تعجب بها ولكن نصيبه وقطره في الحياة . ولوحدة
« الرجل » ذي الأذن المقطوعة لاتعتبر لوحة لكن قطعة من الحياة التي تعيشها بالصورة
والكلمة متداخلتين ، وهذا لأشباع حاجتنا إلى التعويض . ويمكن القول انه أسهل
على المرء أن يتفصل عند سماعه قصة حياة مثيرة أكثر من انغماله أمام عرض عمل
خلاق . وهكذا نرى أن نظام القيم قد تأثر مرة أخرى ، فالفنانون بشير تاريخ
أو الذين نهمل تاريخ حياتهم مثل بوسين وفان ايك أصبحوا ضحية الخيال
الروائي . فالعقري النابغ الذي أنكره معاصروه انتقم له الأجيال التي جاءت
بعده متلهفة إلى معرفة تماسكه وبؤسه لا إلى معرفة عمله الفني .

معرفة جديدة للفن :

وهكذا تولد تحت أنظارنا معرفة جديدة للفن . ومن الخطأ بغير شك أن نقارنها
بالمعرفة القديمة ، وقد تصبح هذه المعرفة في القريب العاجل عالمية مثل الكتابة ،
ولسوف يجد المخبر الجديد بالفن دون جهد وبسهولة في مكتبته انعكاسا لغير
حضارات مختلفة رسمها ونسقها ورقمها ولقبها له مائة نافر . وسيكون قد استقبل
بفكره صورا تزيد عما كان يشاهده في الماضي من لوحات وتحف ، أما من حيث
الرحالة فهما كانت درجة ثرائهم أو طول فراغهم فأنهم ينظرون إلى أعمال بروجل
الموجودة في فينا والصور البوذية المرسومة على الحائط في أجاتنا وتمائيل الأصنام
الموجودة في جزر سيكلاد والأحجار الصلبة الموجودة في أمريكا القديمة نظرتهم إلى
أعمال بيكاسو ورونوار دون نظام أو ترتيب ، وقد يذهب هذا الهاوي إلى الكنائس
والمتاحف يوما لرؤية النماذج الأصلية لما هو موجود في متحفه الخاص فيتعرف عليها
بسرور ، ولن تبيلب أفكاره ويعود إلى عالمه راضيا مطمئنا .

ولكن لم يعد الفن الذي استطون في المساكن الجديدة في ضواحي المدينة وفي
المساكن البورجوازية هو نفس الفن ، فهل من المؤكد أن هذا التطور هدفه المساواة

أيضا ؟ فما زال الجنول اللاشعوري للخصوصيات يمنح الامتيازات . لقد كان امتلاك الصور في الماضي يعد رفاهية أما الآن وقد انتشرت الصور بواسطة المكتبات فأننا نرى الناس ينقسمون قسمين : قسم يقتنى لوحات الجيب أو الكتب الخداعة والقسم الآخر وهم العلماء وأهل المعرفة والأثرياء يقتنى الأنواع الرقيقة في الفن وفي المعرفة .

وصحيح أن عدد الزوار يتزايد في المتاحف والمعارض ولكن هؤلاء الزوار الجدد الذين قد يكونون مدفعين للزيارة بما شاهدوه في الألبومات أو بما تعلموه عن الفن من الصحف والمجلات لا شيء يدل على أن هدفهم من الزيارة هو نفس هدف الذين كانوا يزورون هذه الأماكن في الماضي . ولقد لاحظ جيرار بوير أن الجماهير كانت تتسابق إلى معرض بيكاسو كما تتسابق إلى ضريح لينين فكل ذاهب يقدم القرابين لئلا يذهب بعده عادة في منزله .

وعلى كل فإن الأصنام هذه إما هي أجسام ميتة ، والمتاحف قد تكون هذا المكان الذي تنام فيه الأعمال الفنية على حد قول أندريه مالرو ولكن الألبوم هو مقبرة هذه الأعمال ، مقبرة بورجوازية ، مقبرة عائلية كاملة لا تحتاج إلى علامة ولكنها مقبرة فحسب .

الفن بين الغلود والزوال :

والفنان في الماضي لم يكن ليستطيع شيئا ولم يغير الوضع الجديد من أعماله الفنية ، فمنذ عهد النهضة عمل جميع الفنانين تقريبا من أجل الأجيال القادمة ، كانوا يفكرون في المجد ، أي أنهم كانوا يعلمون في أن يتركوا بعد موتهم أعمالا يثأر بها أكبر عدد ممكن من المشاهدين ، فالجمهور الذي لم يمكنهم الوصول إليه في حياتهم بسبب بطء وصعوبة تنقل الأعمال الفنية ، أو بسبب بطء وصعوبة تنقلات المشاهدين أنفسهم من مكان إلى آخر بحثوا عنه في الزمان وفي التاريخ . وهذا الحافز الذي ظل حيا بفضل التقاليد لم يمت بفضل الأدب التاريخي وبسبب تثبيت الأكاديميات في نقله من جيل إلى جيل ، هذا الحافز كان يمتزج بالتأكيد بمثله مثل حكمة الشجاعة بما كان يشعر به الفنانون من سرور وفرح بسبب عملية الخلق نفسها أو استحسان ورعي المظالم عنهم .

أما اليوم فعلى العكس فقد أصبحت الحاجة للبقاء واستمرار مسألة غير ذات بال بالنسبة للعمل الفني الخلاق ، فالأعمال الفنية تصنع في أغلب الأحيان من مواد زائلة

مثل الأسلاك الحديدية والمصابيح الكهربائية والأوراق اللاصقة وهي تتحرك طالما كانت قوى تحركها . وهي تلعب أحيانا وتطيع ما تأمرها به الآلات التي اذا توقفت زال عنها معناها الفني ويحدث كل شيء وكان الفنان لا يشغل باله بتحقيق الاستمرار والدوام بقدر ما يشغل باله التجديد الدائم للأشكال والآلات والتصوير .

وفي الحقيقة لاشيء يدل على أن هذا التغيير كان سببه تكاثر الصور الفوتوغرافية، التي جعلت بغير شك المودات والمدارس المختلفة غير ثابتة ودائما متغيرة . وفي عالم الاقتصاد يزداد الاستهلاك دون توقف بسبب تعدد الصور التي تمثل المنتجات وعرضها في الصحف وعلى شاشة السينما والتلفزيون . ولابد من التجديد والابتكار بين موسم وآخر ، ومن الغريب ألا يكون لصور الأعمال الفنية تأثير مماثل على الناس بالنسبة للفن ، فقد استهلك جيلنا ونشر من الصور أكثر من أي جيل مضى ، وهذه الفزارة لها نفس النتيجة التي نراها في تكاثر الأوراق المالية : نظام الأنواع والأشكال الذي يتسبب فيه التضخم . وكذلك تعمل كمية الصور المتداولة في الأسواق وسرعة تداولها على خفض القيم الجمالية ، لذلك تتتابع التجارب والأبحاث للقضاء على الملل الذي يصيب الهواة وعلى انخفاض قيمة الصور . ونرى أسلوبا جديدا لايفتا يأخذ طريقه في الحياة حتى يختفي .

والحرية التي أعطيت للفنان ليقدم للناس ما يخطر بباله والتي تضمن لكل عمل جديد من أعماله قبولا حسنا ليست الا وجها للضرورة التي يحتتمها الموقف . وقد ظلت الأشكال لمدة طويلة تتغير وتبدل ببطء وبغير وضوح وكان كل جيل حرصا منه على اتخاذ المظاهر يخفي الثورة القائمة تحت ستار احترام التقاليد ، فلوحة سماء « بيتا » لأفنيون تشمل أعظم القيم للفن الغوطي الذي كان في سبيله الى النهاية ، لكن الاخلاص والوفاء للماضى يقتصر على أخذ هذه النهاية السميدة من الفن الصادق . ولقد ظلت حدود كل تطور حتى نهاية القرن الماضى هي الخضوع للمبدأ الشكلى والاستمرار في نوع من التقنية وهي فن الرسم بالزيت ، ولم يكن الفانيون التأثيريون أنفسهم يريدون الا أن يصلوا الى تقديم صور مباشرة أى أكثر حقيقة للطبيعة . لكن استنفاد الأشكال الفنية الآن أصبح سريعا والجدول أصبحت ذاخرة بالأنماط المعروفة حتى أنه يجب أن نلجأ في كل لحظة الى التجديد في لغة الفن وحتى في حروف التعبير الفني الهجائية . فاذا رأينا أن التقنيات الفنية القديمة لا تكفى فسوف نلجأ الى استعمال البولسترس والمعادن والقماش الرخو والأوراق الملصقة . وسوف تحل الوسائل الميكانيكية محل الصناعة اليدوية وسوف نعيد التكوينات بإعادة استعمال صور قديمة موجودة لدينا ، وفوق ذلك فستكون مهمة الصورة الجديدة أن تجعل هذه الأشياء الشاذة تتماشى مع قياس موحد .

وقد يكون في فن القلق هذا دليل على اضطراب المدنية الحاضرة لكننا لانستطيع أن نمتنع من التفكير في ان هذا الفن قد صاحب على الأقل وجود تطور كان من نتيجته انتاج ملايين الصور وهذا أدى الى الاشباع فيما يخص الأشكال . وقد حدث الانشقاق عندما أصبح العمل الفني لا يركز على الشيء بل تعداه الى الجماهير يتكاثر فيها بانسكاسات لا عدد لها كانما قد كسرت مرآة فتكاثرت الصور التي كانت وحيدة أصلا الى ما لا نهاية .

تعدد الأعمال الفنية عبر العصور :

ان اى عصر لم يحرم نفسه بمحض ارادته من وسائل تعدد الأعمال الفنية ، فقد استقبل الناس بحماس كبير النقش والتصوير الفوتوغرافي حتى شغل اللدائن الجلفانية البشعة النظر . فقد نقلت صور التماثيل الاغريقية التي يرجع نحتها الى قرون ما قبل المسيح ثم التماثيل الاغريقية الاحدث صنما في البلاد المحيطة بالبحر المتوسط افكار اليونانيين القديمة التشكيلية . ونشر النقش في أوروبا اشكال عصر النهضة الإيطالية . والتصوير الفوتوغرافي أداة عمل لمؤرخ الفن وأداة تذكيرة للهاوى وأحيانا أداة تبحث فيه الخيال . وما يهنا هنا ليس وجود طرق فن النقل ، ولكن استخدامها وما يتعلق بوجودها من أوهام . ومن الغباء بالطبع ان نطالب بالعودة الى الوراء ، فالحكم بحرق الألبومات لن يكون أقل بشاعة من الحكم بحرق الكتب .

يجب علينا أن نحافظ على قدرتنا على الحكم من واقع حقيقة الأعمال الفنية وليس بناء على أوهام ، فلا يكفي أن نحرق الصور التي تعرض على المرسان الحديثى الزواج لتزيين جدران منازلهم وهي لاتتمدى أن تكون صورا ملونة منقولة بالآلة ، بالرغم من الأوصاف الطموحة والترف الذى يخدع العين والتي تعطي مع هذه الصور كضمان بأنها منقولة على النسيج أو على الخشب . بل يجب أن نعيد القول بأن الألبوم لا يمكن أن يحل محل الخبرة التي يكتسبها المرء من زيارته للمتاحف والمعارض ولا يمكن أن ينمى به حكما أو تكون عن طريقه فنا للتذوق . فلا معنى لقولنا اننا نحس الفن الهندي أو الفن الياباني أو اننا نفضل جوجان على الجميع لاننا تصفحنا كتباً فنية ، فاننا في هذه الحالة مثل الذى يحب أوبرا دون جوان التي ألفها موزارت لانه قرأها في النوتة الموسيقية ، فالصورة تحرك الخيال وتفتح الذاكرة عند الشخص الذى شاهد من قبل العمل الفني المنقول عنه الصورة ، أو شاهد عملا فنيا مشابها ، فوالد في نفوسنا نوعا من الاحساس الاصيل لاننا نقرب بين ما ذكره والصورة الحالية فيمتلئ الفراغ الذى تركته حولها الصورة الفوتوغرافية ، ولكن بشير المعرفة الغزيرة والذاكرة الناجمة من زيارات سابقة فان عدسة الآلة الفوتوغرافية

لاكتشف الا عن عالم من الملامات نصف السحرة ليس له علاقة بحقيقة الأعمال الفنية الأصلية ، كما هو الحال في التخصص الخرافية التي نقصها على المراقبين .
وأخيرا فلو كان الأمر يتعلق بالأحلام لكان هذا الأفينون مثله مثل أى مخدر آخر ، ولكن الأمر يتعلق بالمشاعر الحقيقية التي يسهل الوصول إليها ، وستبقى دائما الأعمال الفنية وستعيش تحت أنظارنا مادمتا راغبين في رؤيتها .

وتتوالى الصور الفوتوغرافية وتتتابع بسرعة كبيرة ، فالتصوير الملون ببريقه اللامع الغزير يريد من اقتناعه لنا بأنه يعادل المناظر الحقيقية . والأعمال الفنية ليست وحدها التي أفادت من هذا التقدم فقد نقلت الآلة أيضا مناظر الشواطئ المشمسة ويذكر المنازل والأشياء العادية التي نستعملها في حياتنا اليومية والوجوه المختلفة ، حتى الذكريات والأمانى والأمال تقدمها آلة التصوير أمام أنظارنا ، وحتى التاريخ تكون له صورة معينة عن طريق الصور الفوتوغرافية التي تنشر في الكتب وتعرض في السينما والتلفزيون . فيبدو لنا زمن المخاطرات في الغرب ، والملابس الواسعة التي كانت سائدة في عصر الملكة فيكتوريا ، وحتى « السنوات المجنونة » تظهر لنا على الشاشة في صور منقولة عن الحقيقة أو نسجها الخيال . ان وضوحها في نهاية الأمر يمزق ضباب الذكريات الخاطئة التي تركته في نفوسنا القصص والحكايات .

ولكن الأعمال الفنية ليست التاريخ أو أشياء يمكن أن يفيد منها الناس بعد أن يشاهدوا صورها ولا هي مواقع جميلة يمكن السفر إليها والتمتع بها ، والثقافة الوحيدة التي يمكن أن تنسجها لنا ماهى الا ثقافة تخيلية .

ومع ذلك فليس مجديا أن نمتعض على انتشار الصور ولا يمكن ادانة واقعة وقعت خاصة وإن هذه الواقعة تحل بين طياتها أملا وفي نفس الوقت تخفي أوهاما . ولكن المهم هو أن يظل الناس متعلقين بالأسلوب القديم للمعرفة ولا يقبلوا القيم التي يعرفونها عن طريق الصور وحدها ولا يقبلوا هذا النظام المصطنع الذي يجعل تقديرنا للفنان مبنيا على أساس جودة الورق المطبوع وأن يرجعوا بقوة ويتواضع الى الأعمال الفنية الأصلية وحدها . ولا يكفي أن يكون هذا دور المتخصصين في هذا المجال وحدهم لأن هؤلاء يصنعون التاريخ أكثر مما يصنعون اللوق الفني ، أو بالأحرى يخلقون اللوق الفني كنتاج ثانوى لنشاطهم في صنع التاريخ ، ولكننا نأمل أن يقوم بذلك الهواة بالرغم من أفكارهم الهوجاء ومن جنونهم بل من أحلامهم . هذا الموقف القديم الذي جعل بعض الشواذ يولعون بامتلاك الأعمال الفنية الأصلية ويفضلون الرسم الأصلي للفنان من الدرجة الثانية على صورة منقولة عن العمل الأصلي ، هذه الحاجة الى البحث والجمع — التي تسببت في شهرة مارييت وجيجو وغيرها — تغفر للرسامين الذين لم يصلوا الى حد الكمال لأنهم كانوا من أصحاب المجموعات الفنية

ومن اصحاب القدرة على التمييز . كل هذا السلوك الفريد هو الذى يستطيع ان يجعل المجتمع المعاصر يقيق من احلامه ومن اوهامه .

وفى الحقيقة فان جميع الأعمال الفنية معناه استثمار الفن ، وامتلاك الأعمال الفنية ماهو الا الدرجة التصورى لعب الأصالة . لكننا نستطيع أن نجعل الذكريات ونستطيع أن نسر النفس ونمتعها بزيارة الوفور والجاليارى ناسيونال والمتاحف التى فى متناولنا . وأهم ما فى الأمر هو أن نحتفظ بملاقة صحيحة وبصلة حقيقية للأشياء التى جمعت بينها الى الآن صفات مجسمة ، والتى تكمن فى تركيب اجزائها وفى شكلها هذه القدرة العجيبة على التمييز عن فكرة وعن عمل . والمرأة الوحيدة التى لا تزيف ولا تضعف من المعالي والقيم هى المرأة التى فى داخلنا ، مرآة نفوسنا . وكل صورة تفصل بين العمل الحقيقى وبيننا إنما تضر بترتيب أفكارنا . بل تضر بترتيب الأشياء ونسء اليها .

الكاتب : وائل ابراهيم

- استاذ فى معهد الدراسات السياسية فى جامعةباريس وفى مدرسة الادارة الوطنية .
- تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، وهو من مواليد ١٩٢٠

الترجم : الدكتور ذكريا ابراهيم

- استاذ الفلسفة وعلم الاخلاق بكلية اداب القاهرة .
- له مؤلفات عديدة فى الفلسفة والاخلاق وعلم النفس من أهمها : « مجموعة مشكلات فلسفية » (فى ستة اجزاء) ، وكتاب « كانت او الفلسفة النقدية » ، و « برجسون » ، و « دراسات فى الفلسفة المعاصرة » و « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » و « سيكولوجية النكامة والضحك » و « سيكولوجية المرأة » وغير ذلك .
- ترجم : كتاب ديوى « الفن واللحيرة » ، وكتاب « الإيمان والكل » .
- له مقالات ودراسات عديدة فى مجلات ثقافية عربية وأجنبية .

العمل والعقائير.. والثورة

بقلم
فريد كالورين
ترجمة
د. عثمان أمين

الفرد على الزمان

المقال في كلمات

يتناول هذا المقال أبوابا ثلاثة : الزمان في هيلماته ، والتعدد على الزمان ، والمظاهر الحالية لهذا التعدد . إن الزمان هو إطار الوجود ، وقد قيل قديما إن الوقت من ذهب ، ولكن في أيامنا هذه ، أيام الأقمار الصناعية والتقدم التكنولوجي الذي يسير بخطى جبلة إلى الأمام ، لم تعد هذه المعادلة كافية لوصف أهمية الزمان الذي أصبح في الحقيقة هو الحياة ذاتها . وقد أصبح الزمان في المجتمع الحديث الذي يرى أن الصراع مع الطبيعة أمر مقدس ، والذي أصبحت الكفاية هي القيمة الأولى فيه ، أصبح فيصلا حاسما ، إذ ينظر إليه بحق على أنه أحد عناصر الإنتاج . وقد بلغ الأمر ببعض المذاهب الفلسفية أن أدرجت المكان تحت الزمان . الزمان هو الذي يحكم التصانيدات العمل ، بل يحكم إيقاعاته وحركاته ذاتها . أما التمرد على الزمان فيمثلته رائدة الأول روسو . وليس رفض روسو للزمان إلا تمردا على قواه القاهرة ، فهو لا يعترف بشيء خارج نفس الإنسان ووجوده ، وبذلك يكون

الإنسان مستكفيا بنفسه . ويرى أن العصر يمكن أن يكون موقفا طويلا إلا في حالة عودة النفس إلى ذاتها . أما التمرد الحالي على الزمان فأساسه إعادة تفسير الوجود على أساس نفساني مما يهدد بانتهاء السيطرة على الحياة التي تتلقى التوجيه من الزمان . ومظاهر التمرد الحالية من الكثرة بحيث يصعب تسجيلها وتطيلها ، فهي تمتد من نشوة العوام التي يتبعها لهم الترانزستور إلى البهجة السهلة المنال للمتحررة من قيود الزمان ، تلك التي يشرها القفز بالمظلات الذي أصبح هواية تطلب اللب ، ومن فتنة الأفنية البسيطة تفنى في اللحاقى إلى العالم اللازماني ، عالم الفن المعاصر ، ومن تيار الوعي في الأدب إلى اللاعقلية . ومن المظاهر الفريدة للتمرد على الزمان عدم الإحساس بالزمن الذي انقسم به تمرد شهر مايو ١٩٦٨ في فرنسا لوقف ثوري لم يتطور إلى ثورة لعدم اعتماد أحد للاستيلاء على السلطة وتحمل المسؤولية التي تقترب بها . ومن هذه المظاهر أيضا الانتقال إلى وجود لازماني يتعامل المخدرات من أمثال عقار الهلوسة ، تلك المخدرات التي توسع إدراك الأفراد في حدود الإمداد اللاواعية لوظيفة للفح .

منذ القرون الوسطى المتأخرة شغل الإنسان في الغرب نفسه بأحد نشاطين متعارضين أويهما معا . كانت حياته نسيجا من شغل الوقت أو قتله . وقد تعارفنا على تسمية أولهما العمل وثانيهما الكسل . وعلى أي طريقة من هاتين الطريقتين المتنازعتين أو المتكاملتين أخلاقيا شكل للغربي حياته ، فإن تأكيد واحد يجمع بين الطرفين المتبايعين : ذلك هو تأكيدهم ، أن صراحة ولن ضمنا ، أن الزمان هو إطار الوجود . ومقصدي من هذا للبحث أن : أبين أن الأمر لم يعد كذلك . وسنورد البرهان على أن أبعاد الوجود «المقولات» ، وهي أولر معنى ودلالة من الزمان ، تتنافس الآن لرحلته من مكانه ، بوصفه القالب أو الصورة التي تزرخ فيها الحياة بالمعنى . فهذه التيارات الفكرية التي تزدد وضوحا ، ينفي حملها بالضرورة على أنها بديلة ومعارضة لتلك التي كان الزمان المصدرة فيها ، لأنها تعطى الأولوية لفاق تقبل كثيرا من أهمية الزمان ، لتطلع يرمى إلى استبعاده تماما ، بالقدر الذي يكون فيه ذلك ممكنا في عالم مازال محكوما إلى حد كبير بشروق الشمس وغروبها وكسر السنين والأيام وبما إلى ذلك . وأن الزمان قد اكتسب سيادته في عصر يتميز بفرو الإنسان القاهر

للطبيعة أو الانطلاق بنفسه الى العالم الخارجى . ويتم هذا الانطلاق اساسا من طريق العقل والعمل .

ويمكن أن يفهم احتجاب ظل الزمان فى مواطن كثيرة حيثما صار تمثل العالم الخارجى الموضوعى وردة الى « الجوانى » فى الإنسان أهم ما يشغل باله .

وسنحاول فى خطوات ثلاث أن تلقى نظرة على : (١) خصائص العصر الذى كان الوجود فيه محددا بالزمان . (٢) التمرد على الزمان وظروفه كما تتمثل فى كتابات جان جاك روسو . (٣) بعض علامات التزايد الحالى لهذا الاتجاه فى الغرب وبعبارة أدق فى المجتمعات التقنية .

١ - الزمان فى هيكلته : انظر الوجود :

من اللحظة التى أعلن فيها للعالم الأفريقى الرومانى أن قد حان طريق الخلاص (رسالة الى أهل كرونشيا أصحاح ٦ : آية ٢) كان مقدرا للزمان أن تتعالم أهميته ولكنه كان صعدا ونبدا مشدودا طويلا . وحتى أجراس الأديرة المضبوطة ميكانيكيا أو الساعات الفلكية بتقاويمها الدقيقة لواقت الأعياد الدينية المتناوبة وبأشكالها المهترئة المتوثبة التى كانت تعيد الى الأذهان دورة الحياة ، حتى هذه وطك لم تسجل انتصارها وإن الساعات المنصرمة والأيام صارت مجرد أجنحة ضرورية للتطبيق الى مرحلة « الماوراء » أن وضع الزمان فى مكانه للحياة هو ما كان من حمية الاستعانة به فى مطلع عصرنا فى خدمة ذلك النشاط المتزايد الإنتاج المعروف بالراسعالية فى صورها الصناعية والتجارية . وفى مستهل هذه العملية زادت أهمية الزمان ووضعت عليه القيود فى آن واحد . وكان ذلك من طريق الجزء الدينى الأخرى الذى كان مصلنا على عملية الإنتاج مؤولة على أنها من أفعال الله . وقد قال باكمتر الهيريتانى الكبير :

« فسد الوقت تقديرا عاليا وكن كل يوم أحرص على
الأتيع من وقتك شيئا أحرص منك على الأأتيع
شيئا من ذهبك وفقتك . وإذا كانت التسلية
العابثة والملبس والولائم وحديث الكسالى والصحة
غير القيدة والنوم من شأن أحدها الإغراء باختلاس
شيء من وقتك ، فإن عليك إذن أن تشدد من
يقظتك » . (١)

(١) الرشيد السيسى ج ص ٧١ اقتباس ويبرى الاطلاق البروتستانتية وروح الراسعالية نيويورده

ولكن لم يطل الأمر حتى صار « الوقت من ذهب » كما قال بنجامين فرانكلين .
وفى يومنا هذا لم تعد حتى المعادلة بذلك المعيار المستقل للقيمة المالية كافية
ليبان كيف أن الزمان قد صار فى سياق التسليح والإقمار الصناعية ، هو هو
البقاء ، الحياة ذاتها (٢) .

والسبب فى صدارة الزمان ليس من العسر الاهتداء اليه وان كنا سنلاحظ
أن الظاهرة من أحدث الظواهر التاريخية مصدرا .

ان المجتمع الحديث متصور ومنظم على أساس انه جماعة عمل . وقد مير
« ايريك ثثيل » من ذلك فى وضوح بقوله :

ان المجتمع الحديث يفهم وينظم نفسه بهدف الصراع التقدمى مع الطبيعة
الخارجية (٣) . . لان المجتمع الحديث يرى أن الصراع مع الطبيعة امر مقدس وأنه
هو القيمة التى تشكل أساس انعكاسه والتى يفضلها يوجه نفسه (٤) وتصبح الكفاية هى
القيمة الأولى فى هذا المجتمع . وفى عبارة أخرى على حد قول « سومبارت » فإن
العقلانية الاقتصادية هى أبرز السمات فى الحياة الاقتصادية الحديثة ككل (٥) . ويعنى
هذا أن العمالة والطاقت الأخرى تكون منظمة ومبدولة فى أكثر الطرق الممكنة
فاعلية لإنتاج السلع والخدمات المادية . وهكذا يصير الزمان بصورة مطلقة فيصلا
حاسما ، حيث ينظر اليه بحق على أنه أحد عناصر الإنتاج . ولقد اكتشف انه أحد
الأبعاد التى تمارس فى إطارها الطاقة الإنتاجية ، وهكذا فإنه يتسم بأهمية حيوية .
ان دراسات « ف.و. تابور » من الزمان والحركة مرادفة لجهود التعتيل الصناعى
التي قام بها منظمو العمل بنية تنظيم الإنتاج بمنطق ثابت يكون فيه الزمان المترى
مع الحجم والتنظيم هى العناصر الأساسية . ان التاييلورية كما تطلق أحيانا على
تعتيل نظام العمل بلغ بها الأمر الى إدراج المكان تحت الزمان .

ويقول : «دانييل بيسل» فى تعليقه على عبادة الكفاية فى أمريكا : « ان الزمان
يحكم اقتصاديات العمل بل يحكم إيقاعاته وحركاته نفسها (٥) » .

(٢) من امتمع ماكتب فى وصف شمول وأكثر سيطرة الزمان فى المجتمع الصناعى المتقن والمصادر
مناجده منذ ريمون ميلكا « الواطبة » بحث فى سيكولوجية الإنسان الحديث فى ديويجين ، العدد رقم ٦٥
ديسج ١٩٦٩ .

(٣) فابل : الفلسفة السياسية - باريس فران ١٩٦٥ ص ٦١ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٧ .

(٥) فيبر ص ٧٥ .

(٦) دانييل بيل : نهاية الايديولوجية . نيويورك ١٩٦٥ ص ٢٢١ .

وأود أن أعود الى « أريك فيل » للاشارة توضح تمام الايضاح النتيجة البارزة التضمنية التي يجب استخلاصها من تنويع الزمان باعتباره هو بعد الوجود . ومع انه نال الخطوة في خدمة « الما وراء » والابدئ بتنظيم اعمال المبادات الانسانية أولا ، ثم باستغلاله النظام المخلوق زيادة في تمجيد الله ومخلوقاته ، الا ان الزمان ما كاد يتربع على عرشه ، وهو ما يتفق مع طبيعته ، حتى وضع حدا لعلاقتنا بأى عالم آخر من عوالم الواقع . ويعلق « فيل » بقوله :

« ان المجتمع الحديث يعرف نفسه على غرار كافة مجتمعات التاريخ بما يسميه المقدس بالمعنى الصورى لهذا اللفظ ، بذلك الأمر الذى لا يناقش ولكنه أقرب الى أن يشكل أساس كل مناقشة . وهذه القيمة المقدسة فى نظر المجتمع الحديث هي النتيجة التى يمكن قياسها ، وهي حصيلة الصراع مع الطبيعة ومنها نشأت مبدأ اسقاط كل قيمة مقدسة تتجاوز المجتمع وعمله . وان اتحاد الأفراد وعماطهم فى قيم ليست موضوعة على مستوى الطبيعة ولا مستوى الصراع مع الطبيعة وفى ذاتية كلية وشخصية ، سواء كانت هي الطبيعة أو الله أو المدينة أو الملك لأمر ينكره القاتون أو على الأصح يعتبره عديم الجدوى ومناقضا للقيمة الاجتماعية (٧) » .

وبالطبع فان الزمان لم يكن يتسنى له ان يفرض نفسه بهذه الصورة على الانسان الغربى ما لم يكن الانسان الأوربي قد تمها لتعريف نفسه فى اطار الزمان . ولقد صاغ هيجل هذا التطابق فى صورة لا يملأ عليها بقوله « يحصل التمييز أحيانا بين اعمال الانسان وبين ما هو عليه فى وجوده الداخلى العميق ، وهذا التمييز يعوزه الصدق من وجهة النظر التاريخية : فان الانسان ليس سوى مجموعات اعماله . وهذا المفهوم للانسان على أنه نشاط منبثق من الانفصال الذى أحده المجتمع الصناعى الحديث بين الانسان والطبيعة . واذ لم يعد الانسان قادرا على أن يجد نفسه جروما من الطبيعة فإنه قد حقق وميه الجديد لذاته فى علاقة سلبية جعلت من العالم الخارجى موضوعا غريبا عليه يتمين تمثله من طريق تدميره وتحويله . وعلى حد قول هيجل :

« بعد خلق الطبيعة ظهر الانسان وعارض العالم الطبيعى وهو الكائن الذى رفع نفسه الى كون ثان . ويضم ضميرنا العام فكرة مملكتين : مملكة الطبيعة ومملكة الروح . وتشمل مملكة الروح كل شيء ينتجه الانسان . ويمكن تصور عالم الله على عدة صور . ولكن الأمر دافكا أمر عالم روحى يجب أن يتحقق فى الانسان وان يأخذ شكله فى الوجود (٨) » .

(٧) فيل : المرجع السابق ص ٦٦ .

(٨) المرجع السابق ص ٧١ .

ان معادلة الانسان بالزمان ومعادلة الزمان بالحقيقة القصوى المنبسطة في التاريخ يمكن ان ترى بوضوح في الملاحظة التالية وهي شاهد اكبر بكثير على واقعية هيجل من المثالية التي اتهم بها منذ هجمات فويرباخ وماركس . وان التاريخ العالي هو تعبير عن العملية المطلقة للروح في اسمى اشكالها : التقدم التدريجي حتى تبلغ الى حقيقتها وتصبح وامية لذاتها (٩) وليس هناك ما هو اوضح في التعبير عن ذلك مما كتبه حين قال : « يظهر للزمان اذ ذاك وكأنه القدر المحتوم للروح التي لم تكتمل بعد في ذاتها (١٠) . وهي الضرورة من خلال العمل والصراع ضرورة اتمام ما قد كان اول الامر جوانبا فحسب والكشف عنه » .

وبودي ان ابرز أهمية تصور هيجل بالاحالة مرة اخرى الى تفويضاته كما اوضحها اخذ مشاهير تلاميذه وشرح فلسفته وهو « كوستاس يايوانو » :

« حتى ذلك الحين كان الزمان يعتبر العدو الأكبر والمساوي على وجه الإطلاق والرمز القاسي للنقص والخطأ واليوار . وهكذا دأب الناس على أن يضربوا سياجا حول آلهتهم بوضعها في أبدية لا تشوبها شائبة ليهيئوا لأنفسهم نقطة ارتكاز ثابتة يتشبثون بها وتكون جنة لهم من قبضة الزمان الشاملة ، فكان للأقدمين كونهم الذي لايعروه الفساد والمحدثين عقلهم بحقائقه الأبدية . وكانت كل جهود هيجل ترمى الى استخدام استعارة باسكال الرامية الى اغراء العقل بأسكان عدوه في ذاته . وعلى غرار فخرس ديور فان المطلق عليه أن يؤدي الى الطريق بين الشيطان والموت (١١) .

٢ - التشنرد على الزمان :

قبل أن يصوغ هيجل وصفه لتأليه التاريخ الانساني بأكثر من ثلاثين عاما في عبارات انما تحقق صدقها اليوم فحسب فان ثورة حديثة على الزمان كان ينسادي

(٩) حروب التاريخ الصفات الخاصة لاخلافتهم الاجتماعية دستورهم ، فئهم ، ودينهم ، وطلمهم هيجل بصورة هذه التقدم التدريجي ، وانجاز هذه الخطوات هو الرغبة التي لا تنتهي والدفع الذي لا يقاوم لروح الصانع ، لان بيلها والتجارتها هو ذات مفهومة وان ميلاده روح الشعوب في السلسلة الضرورية لتتألفها ليست شيئا في حد ذاتها ، ولكن لحظات الروح الكلي الواحد ، ويفضلها يرتفع التاريخ الى حصول صفات لذاتها وتحقيق النتيجة . نفس المرجع ص ٩٧ - ١٠٨ .

انظر ايضا على سبيل المثال هيجل - فريوس في فلسفة التفويض باريس ص ٢٢٧ ان العالم المعاصر هو الامبراطورية الروحية في وجودها امبراطورية الارادة التي تهب لنفسها الوجودية والليينوموتولوجيا ص ٢٠٥ الصورة التي يكون عليها الجور في اليوم .

(١٠) فيتوموتولوجيا م ص ٢٠٥ .

(١١) التاريخ والليودوسيا في هيجل المعقد رقم ٥٢ ربيع ١٩٦٦ ص ٤٩ - ٥٠ .

بها جان جاك روسو (١٧٧١ - ١٧٧٨) بصوته التهافت . وظاهرة التمرد على الزمان التي كانت قائمة حينئذ بمثابة تيار معارض لتشكيل الحياة الحديثة تشكيلا زمانيا والمصافة والاندفاع والثورة وحركات القمع من مختلف الأنواع هذه الظاهرة قد اتسمت الآن اتساعا لايمكننا معه أن نوافق على قول بون هوفز بأن الجسوانية والضمير قد بلغا نهاية الشوط (١٢) وأمل أن يكون الفحص الوجداني لاحتجاج روسو مفيدا في بيسان أفرانسا .

وحين التحدث عن تمرد روسو واحتجاجه في هذا الصدد فإني أشير إلى آخر كتاباته « سوانح متجول في خلوته » . واني أستعمل هذين النعتين لوصف مقال روسو في عرض دموي لم يقطع بها بعد النقد الأدبي في مجالته لهذه «السوانح» ولم تختبر في ضوء معرفة وثيقة بحياة روسو ومواد دراستها . ومع ذلك فإني أعرضها في العبارة الموجزة التالية : معظم الشراح يفهمون « السوانح » على أنها تشكيلة من التجارب الجسوانية وضمت بغير ترتيب ولا نظام وتسجيل شخصي للتجارب المتعاقبة التي طرأت على نفسه (١٣) . أما محاولة وضع ترجمة ذاتية منهجية ومرببة ترتيبا زمنيا فقد دونها روسو في اعترافاته ومعارفاته التي أنماها جامي ١٧٧٠ و ١٧٧٦ على التوالي ، ومع ذلك فقبل وفاته بعامين ، وقد كانت حياته قد سجلت وفق الترتيب الزمني وكان يشعر بأنه وحيد على الأرض ، فإن روسو وجد أنه مازال عليه أن يبحث متسائلا ما عساي أن أكون أنا نفسي منفصلا عن بقية الناس وعن كل شيء في هذه الحال من العزلة ؟ وما يأتي بعد ذلك في « السوانح » إنما هو في رأيي اجابة تصاعدية صيغت في نهاية من هذا السؤال . والذي يهمني ملاحظته هو أن النظام لم يعدد ولا يمكن التعرف عليه بمنطق الزمان . والأولى أن يقال ان هذا النظام قد حددته صدارة حقيقة أخرى جواتية ، ربما استطعنا أن نبيها وجودية : فالزمان هنا لم يتجاهل فحسب بل إنه انتهك ونبد .

ان تعاقب اللحظات أو التجارب التي يسجلها روسو في الإطار الموجز « للحوالات » العشر يتحرك في سلسلة علاقات وثيقة جواتية ، ويبدو أنها تتقدم من الميلاد الذي حدث في أكتوبر ١٧٧٦ (كائن عمر روسو إذ ذاك ٦٤ عاما) من خلال وفيه لنفسه واستغراقه في الطبيعة واحتوائه لها ، ومن خلال علاقته بالآخرين والأطفال ، وأخيرا من خلال علاقته مع «مدام دي فارانس» . ولنلاحظ أيضا أن هذه الخطوط أو الدكريرات قد وضعت تحت إشارة « السوانح » أي حالة من الانفصال

(١٢) كتب رجل الامور البروسستاني من السجن عام ١٩٤٤ يقول ان « زمان الجواتية والضمير قد انقضى » رسائل واويال من السجن فولتتا ص ٩١ .

(١٣) انظر على سبيل المثال روبرت اوميت : « اسهام في الدراسة النفسية للسوانح » حوليات

جان جاك روسو .

الدهنى ' و النفسانى بعيدا جدا من المنطق المعتاد ، منطق العقل . ومن المفيد ان نقتبس هنا عبارات قليلة يصف فيها الاحوال الدالة من احوال نفسه فى الجولة الثانية ، التى يصور فيها حادثة سقوطه من اثر اصطدامه بقلب كبير . وقد وصف رجوعه الى وميله على النحو التالى :

« كان الليل يرحف فى اخرياته . راقبت السماء وعديدا من النجوم وبعض الخسرة من حولى . هذا الاحساس لحظة ابتهاج . وكان وعينى لنفسى على هذا النحو وحده . لقد حملت فى تلك اللحظة ألم الحياة ، وبدأ لى انى ملأت بكيانى الخفيف جميع ما رايت من اشياء (١٤) » .

الجزء الخامس :

اذا كانت هناك حالة تجد النفس فيها أساسا متينا لتراح اليه تمام الارتياح وترسم فيها كامل وجودها دون أن تتذكر الماضى أو تدلف الى المستقبل ، حسالة لا يكون الزمان مندها شيئا ، حالة يدوم الحاضر فيها الى الأبد ودون أن يظهر ديمومته ودون أى أثر للتماقب ، ودون أى شعور آخر من حرمان أو ابتهاج ، من لذة أو ألم ، من رغبة أو رهبة غير رغبتنا الوحيدة فى الوجود ، هذا الشعور ربما أخذ بمجامعها (١٥) .

واذا كان الأمر هنا متصلا بما بينه وبين الطبيعة ونفسه من علاقة سلبية هيئة، فانه يعالج فى الجولة السابعة العلاقة الإيجابية بالعالم الطبيعى . فهل يمكن القول بأنه يشير هنا مسألة العمل فى ضوء التصنيع البازغ والعقلانية السائدة فى زمانه ؟ أن نشاط الترجية البجرد من المنفعة فى جمع النبات هو وحده الذى يوائم روح التأمل الحساسة والانسان للتكامل ، اذ يستغرق فى هذا التأمل وحده .

« تستولى على حواسه سائحة ناعمة وعميقة ويفقد نفسه فى نشوة اللبدة فى طيات عظيمة هذا الكون الجميل ، شاعرا بأن نفسه قد اتحدت به . حينئذ تغلت منه جميع الأشياء الجوفية فما يرى ولا يشعر الا بالكل (١٦) » .

وحتى جمع النبات عندما يعمل لأسباب علمية عقلية أو لأغراض مادية نفعية لكشف الأعشاب الطبية فانه يبعد الانسان من الاتحاد بالعالم الطبيعى . وجمع

(١٤) المرجع السابق ص ١٠٠

(١٥) المرجع السابق ص ١٠٤٧

(١٦) المرجع السابق ص ١٠٦٢

الصخور هو علة لإتماد معائل يتطلب الصناعات والجهود والعمل في عون تماسة الإنسان . وشبيه ذلك دراسة حياة الحيوان ، فانها تقوم على أساس منشآت باهظة التكاليف وفي النهاية على استغلال حياة الحيوان التي يتمين تدميرها لفحصها (١٧) .

وفي الجولة الثامنة يصف لنا روسو كيف وجد سلام الروح في حال صغار فيها هو الذي كان يشعر أنه جذير بالحب والاحترام غرضاً للسخرية مخيفاً في نظر جيل معاصريه بأجمعه (١٨) :

« صحيح اننى حين آوى الى نفسى وحدها من دون الناس ، فاننى اميش على قوت نفسى ، ولكن هذا القوت لا ينفذ ، وأنا مستكف بنفسى » (١٩) .

ويمكن السر في الدخول في علاقة مع النفس التي حل فيها تقدير الذات محل الكبرياء وحب النفس . وفي فقرة تسترعى الانتباه يشسر روسو الى كبريائه باستعمال ضمير الغائب ، يصف عملية التجويز (رد البرانى الى الجوانى) من خلال ترجمة الكبرياء الى تقدير الذات .

« فى مكوفى على نفسى وقطع العلاقات الخارجية التي تجعل الكبرياء ملحمة أشد الالاحاح ، ويرفض المقارنات والمفاضلات ، صار « هو » قائما بأن اكون أنا رحيما بنفسى بالقدر المعقول . واذ صرت حينئذ الحب لنفسى (بدلا من حب النفس) فانه قد اطمان لنظام الاشياء الطبيعى وحررتى من نير الراى » (٢٠) .

وفي الجولة التاسعة ، المتنافرة في ظاهرها ، اذ يستعيد روسو ذكرى عدد من التصرفات السعيدة مع الأطفال ولن كانت ناقصة وغير طبيعية (٢١) ، يبدو مرة اخرى أن القصد من ذلك هو بيان طائفة من العلاقات كانت جوهرية لحياته ، ولكن كان عليه التسلیم في شأنها ببعض الضعف والثرثرات .

ولقد امتد الإحساس بالافتقار الذى عاناه يوما ما في طفولته ، وهو يتصلم ، واخفاقه المشهور في العلاقات الإنسانية ، امتد أيضا الى الجنس الآخر ، وهذا هو السبب في أن دهشتنا ليست قليلة ، ولكننا رغم ذلك قادرون على أن نجد مفرى

(١٧) المرجع السابق من ١٠٦٧ - ٨ .

(١٨) المرجع السابق من ١٠٧٦ .

(١٩) المرجع السابق من ١٠٧٥ .

(٢٠) المرجع السابق من ١٠٧٩ .

(٢١) لاحظ الإشارة الى دور النقود في كل حالة تقريبا من حالات علاقته بالأطفال ، والعلاقة

ملانة شراه وان تكن في درجة مختلفة من ١٠٩٦ .

ما فى الجولة العاشرة المفترض انها لم تتم . وفى وصف روسو لما كان بينه وبين مدام دى فارانس من علاقة قصيرة لم تكن كلها شاعرية ، كتب يقول :

« مامن يوم من ايام حياتى الا وتذكرت فيه بالابتهاج والحنان ذلك الوقت الفريد القصير من حياتى حين كنت انا نفسى خالصا كل الخلوص من الريف واحوائى ، وحينئذ استطيع ان اقول بحق اننى قدحييت . واكاد اقول مثل ما قاله الحاكم الرومانى الذى عندما ذهبت عنه الخطوة فى عهد فسباسيان ولى منسوريا ليختم ايامه فى الريف : « لقد قضيت على ظهر الأرض ستين سنة وازدادت مشرا ، ولكنى لم اعمش منها الا سبعا (٢٢) » .

وكل قصدى من هذا العرض المسهب ، وغير التام مع ذلك ، انما هو البت ان روسو فى « سوانحه » يضع الوجود فى اطار لا يحسب فيه للترتيب الزمنى حسابا . انه وجود مؤنس على علاقات غير مرسومة بين النفس وذاتها ، وبين النفس والطبيعة ، وبين النفس والطفولة العفوية البرئة ، وبينها وبين رفيق القلب . وروسو مصرى بمعنى ان رفضه للزمان ليس امر تحليق فى عالم « المأوراء » الخالص ، ولكنه تمرد على قوى الزمان القاهرة فى حدود « هذه » الحياة وامكانياتها . ان الوجود داخل فى ميدان الزمان (٢٣) ، ولكن ان يحيا الانسان داخل فى انعدام الزمان . ان العمر يمكن ان يكون موتا طويلا الى ان تخلق الحياة بفعل من افعال الجوانية . الا وهو هودة النفس الى ذاتها « (٢٤) » .

« ان مصدر السعادة الحقة كامن فينا » (٢٥) . وحتى العلاقات الحيوية مع الطبيعة الخارجية ومع الاشخاص ماهى الا معابر على طريق عودة لامفر منها الى النفس الجوانية . وان ابتهاج القلب الذى يتشوق الى العثور عليه فى ميثى الطفل السعيد ما هو الا انعكاس لما فى نفسه هو (٢٦) . وحين يصف روسو النشوة التى يستشعرها الانسان عند مشاهدة المناظر الطبيعية لجزيرة سانت بيير ، يتساءل عما عساه ان يكون مصدر هذا الابتهاج ؟

• (٢٢) نفس المرجع ص ١٠٩٩ .

(٢٣) كتب مارسيل ديمون فى تعليقه على ذكر الزمان المقتبس ماورد فى الجولة الخامسة « لايبشر اننا قد جاورنا الزمان ، ولكن هناك بالنعكس لزول فى وجود تطفى ميق الى حد الدخول فى صورة متجانسة وغير متفائلة من الزمان » نفس المرجع ص ١٧١٩ « ويقتضى ريمسون من جان فال لوحة الفلسفة الفرنسية » باريس ١٩٢٦ ص ٩٤ - ٩٥ . ان نوما من التعريف الوجودى قد تأسس » .

(٢٤) الجولة الثانية ص ١٠٠٤ لقد خلقت لاحيا واموت كون ان اقون قد حييت .

(٢٥) الجولة الثانية ص ١٠٠٣ .

(٢٦) الجولة التاسعة ص ١٠٨٩ السعادة فى الوجود هى (أو الابتهاج) يشتره هو بالنعقد .

« لأشياء خارج النفس ، ولأشياء غير نفس الإنسان ووجوده ، ويكون الإنسان مستكفيا بنفسه ، شاته في ذلك شأن الله ، مادامت هذه الحال » .

والسؤال الهام في سياق كلامنا هو لماذا عمد روسو في إقامته ببيان الوجود طبقا لمنطق الجوانية الى الوقوف معارضا نظام الزمان ؟ الجواب يتعين علينا أن نجد بعضه في روح مجتمع القرن الثامن عشر الأوربي ، وشطره الآخر في تحليل روسو لذلك العالم . لقد كان ذلك القرن كما يتبين بوضوح من جميع مظاهره ، بداية «درامية رائعة» للمطلقية الإنسانية . أن « الإرادة المطلقة النازعة الى الصورة تلقت تعبيراً عنها من كل وجه ، من الحدائق المنسقة تنسيقاً هندسياً كاملاً ، الى التصنيع الناهض ، ومن برمجة التربة الى مولد الجغرافية التاريخية والاقتصاد السياسي . ويكون الديناميكية التي كانت تحفر انسان القرن الثامن عشر في أن تنقل الى الخارج الصورة النبيلة للروح ، باخضاع كل شيء حول الإنسان لنظام عقلي وتصيير الكمال مرئياً . والزمان ، من وجهة النظر هذه ، لم يكن جبرية مفروضة من الخارج من قبل نظام للوجود ثابت ومتعال ، ولكن الزمان كان ضميعة الى عقل الإنسان . وكان الزمان هو تنظيم النشاط على هدى العقل . واذن فقد كان للعقل في خدمة البرائية الفعالة . ويقول روسو في مقاله من أصل صدم المساواة بين الناس أن انسان العصر تعرف هويته بنشاطه المعموم الذي تنظمه قاعدة الزمان .

« أن المواطن ، في سعيه المتواصل ، يعرق ويمنى نفسه ولا يكف عن القلق ، منطلقاً الى عمل أشياء هي أشد عنه . وهو يسوق نفسه الى الموت ، بل أنه يبدو مسرعاً الى حتفه ليتمكن من الاستمتاع بالحياة ، فان لم يتهبأ له ذلك انخلع عن الحياة لنيط البقاء (٢٨) » .

ربما يتضح الأمر الآن ، فالفعل مبتخلاً صورة العمل ، هو وسيلة التحقق في العالم الخارجى ، والإنسان الحديث ، مدفوعاً بشهوة القوة والسمة وطو الشأن ، يتسم فوق كل شيء بسمة الاغتراب .

« تخنيا الإنسان البدائي داخل نفسه . أما الإنسان في الجماعة ، وهو دائماً خارج نفسه ، فلا يعرف كيف يحيا الا في رؤوس الآخرين حتى ليتمكن القول بأنه إنما يعتمد على رأيهم في شعوره بوجوده (٢٩) » .

(٢٨) جان جاك روسو «العالم الاجتماعى» .. «مقال من أصل علم المساواة بين الناس» الخ
باريس جاذيبه ١٩٦٢ ص ٩١
(٢٩) نفس المرجع ص ٩٢

لماذا ينهض روسو معارضا ذلك المركب من الزمان والعمل والبرانى الذى هو « روح المجتمع » ؟ لان ذلك المركب هو أساس ذلك الخليط من الناس المتصنعين ومن الأهواء الزائفة (٣٠) ، اى المجتمع انذى ينزل له الانسان مضطرا عن وجوده ، والذى بدوره يدمر حرته. ولانسان الذى ولد ليكون حرا يصير بجعله وجوده برانيا مكبلا بالافلال فى كل مكان (٣١) فذلك الذى فكر فى أن يبسط ذاته ليمتد الى السيادة على الطبيعة وعلى الانسان لم يلبث أن صار أكثر منهما رقا وعبودية (٣٢) .

لقد كان روسو شديد الحساسية الى درجة تكاد تكون مرضية بظلم المجتمع كما رآه فيما يدبره الآخرون من دسائس ومكائد . ولو كان له من الخفاء وسمة القدرة ما لله كما تفكه هو بلهجة الخطابة فى الجولة السادسة ، لاستطاع أن يمش فى سرور ، ولعمل صالحا بينهم ، وللاستطاع أن يعبر بما هو أوضح من ذلك عن شوق المغترب الى شكل من البرانية مبرا من الصودية ، وشوقه الى التثشاش غير المشروط بالزمان ، والى العلاقات المتحررة من السيطرة . ولكن انى لروسو أن ينال ما تفرد به الله من صفات التعالى ؟ فهو اذ كان محصورا فى اطار معقولة مثسودة الى الزمان ، فقد اختار العالم الداخلى وبحث عن توسيع نطاق الوجود داخل الأبعاد المحددة للواقع الطبيعى ، ولكنه بالفاته الزمان فى هذه المحاولة ربما صار أول متصوف دنيوى للعالم المعقول .

٢ - المظاهر العقلية لتعدد :

ان الحركة التى كان روسو أول من عبر عنها قد صارت تيارا معارضا واضحا جدا فى المجتمع المعاصر . وماكان فى بداية الأمر تجربة متردد غير دقيقة لتعريف الوجود طبقا للمقولات « الطبيعية » أكثر من العقلية ، قد اكتسب فيما بعد أهمية عظيمة بأقامته حقيقة البنيان النفسى معارضا لحقيقة عالم العمل . وان فعل الرومانطيقية على الاستمئداد العقلانى الغالب فى المجتمع ، اقد برز على أشده فى الاحتجاجات النفسية على المجتمع التقنى . وقد قويت هذه الحركة فى مجالين هامين : فى القام الأول تأيد صدق فهمه للواقع عن طريق معرفتنا المتزايدة للسلوك النفسى . وفى القام الثانى فان القهر الواقع من العالم المقيس بمقاييس الزمان ، مرادفا للعمل ، ولذى أدى الى الانسحاب الى الجوانى ، قد امتد امتدادات طافية .

(٣٠) نفس المرجع ص ٦١ .

(٣١) نفس المرجع ص ٢٢٦ من « العقد الاجتماعى »

(٣٢) نفس المرجع ص ٢٢٦ .

فى هذه الظروف رأينا ما كان كامنا على نطاق واسع من فوضى متزايدة ومن « قلب لوضع الزمان » قد أخذ يظهران فى وضوح وجلاء .

ولتوضيح النقطة الأولى ، أذكر فقرة من « فرويد » تستلفت النظر . ان حدس روسو هنا يلقى تأييدا لا يخلو من تحفظات . وقد قرره فى أوضح المبارات :

« استنادا الى بعض معطيات التحليل النفسى التى نملكها اليوم ، يجوز لنا ان نرفع صوت الشك فى افتراض كائط الذى يرى ان الزمان والمكان هما الصورتان الضروريتان لفكرنا فنحن نعلم مثلا ان العمليات النفسية غير الواعية « غير زمانية » وهذا يعنى انها غير مرتبة فى نظام الزمان ، وان الزمان لا يخضعها لآى تغيير ، وان صورة الزمان لا يمكن ان تنطبق عليها (٣٣) » .

والنقطة الثانية قد صاغها الفيلسوف السياسى الهيجلى « اريك ليل » صياغة جيدة أيضا . فمجتمع اليوم الذى اتخذ العمل شعاره الموجه ، هو عقلانى الى درجة كبيرة من الوجهة الوظيفية والتقنية للصراع مع الطبيعة بحيث انه يخضع الفرد اخضاعا متزايدا للتناقض القائم بين ضرورة المجتمع العامل من جهة وعدم حساسيته من جهة أخرى ، وفى مثل هذه الظروف ينزع الفرد الى أن يكون عاريا عن المعنى . وما دام المقول يفرق الإنسان على هذا النحو فى « اللامعقول المطلق » ، فإن عقلانية المجتمع الحديث معيبة والفرد يعوزه الرضى بحاله .

« وهكذا يتطلب العقلانى الناقص ، فى ذهن الفرد ، ما يسميه المجتمع المنصر التاريخى ، أسمى القيم التقليدية المقدسة ، والشعور والجوانية . وأما الحياة « الجوانية » هى التى تكون « فردية » الفرد بمقدار مالا يكون هذا الفرد مجرد حامل من عوامل الإنتاج . ويجد الفرد معنى فى الصراع — سواء كان هو الصراع الخارجى مع الطبيعة أو الصراع داخل المجتمع — وذلك فقط الى الحد الذى يبدو فيه الصراع ضروريا له ليكون قادرا على أن يحيا لنفسه وفق قيمته المقدسة (٣٤) » .

(٣٣) الترجمة النموذجية موجودة فى سيجموند فرويد « ما وراء مبدأ اللذة » (١٩٢٠) الطبيعة النموذجية لأعمال سيجموند فرويد النفسية بأكملها ، ترجمة جيمس ستراشنى م ١٨ لندن مطبعة هوجلرث ومحمد التحليل النفسى ١٩٥٥ ص ٢٨ ، وانظر أيضا الملاحظات الأخرى المأخوذة من نفس المرجع م ١٤ ، ١٩٥٧ اللاومى (١٩١٥) ان عملية نظام اللاومى غير زمانية أى انها غير مرتبة زمانيا ولا تتغير بمرور الزمان ولا علاقة لها بالزمان إطلاقا ، والاستناد الى الزمان مرتبط مرة ثانية ، بمسل نظام الوعى . ان صليبات الوعى لا تغير الواقع الا التفاتا لئلا . وهى خاضعة لمبدأ اللذة ويتوقف مسيرها على مدى قوتها فحسب وعلى ما اذا كانت تنجز مطالب قاضية اللذة — عدم اللذة .

(٣٤) « الفلسفة السياسية » ١٩٥٦ ص ٩٣ هذه الجملة سبقتها العبارة التالية :

« ان الصراع الاجتماعى حتى فى كل مجتمع خاص يظهر للفرد فى آن واحد على صورة العمل الاجتماعى وعلى طابعه اللامعقول . وهو يلقى بالفرد على نفسه ويبين فى نفس الوقت ان هذه النفس ان هى الا لفظ مجرد من المعنى ولا يحصل له : المقول يفسره فى اللامعقول المطلق » .

ويرينا « فيل » فى وضوح كيف ان مجتمع العمل ، فى صورته التقنية ، قد احدث انقلابا فى ذلك النظام السابق ، على الأقل كما عبر عنه اولئك الذين يستر لهم ظروفهم اقتناع أنفسهم وغيرهم بهذه الايديولوجية . ونحن اليوم نعمل لنعيش ولا نعيش لنعمل . وتلك الحياة ، كما توضح لنا الشواهد ، لا يكون التماسها خارج دائرة العمل فقط . وفى المجتمع المسرف فى العقلانية نجد ان الامكانيات المفردة ، امكانيات اعتبار الوقت مرادفا للفراغ ، اعنى (الوقت للاستهلاك) ، ذات أهمية فى اعطاء معنى لوجود الفرد كاهمية الوقت المبدول فى العمل الانتاجى سواء بسواء .

وحين لا يكون الشخص عاملا منتجا ، فانه يكون مستهلكا . والاستهلاك فى هذا المقام انما هو الوجه المقابل للانتاج . والاثنان وجهان لصراع واحد يرمى الى انتزاع الحياة من وجود انفسهم بسمة الموضوعية او بسمة الشيئية . ان هذا الصراع هو الذى يضع الزمان فى عبودية فوق الوجود . والاسراف والتبديد كذلك هما تحية الكفاية والانتاج . والاثنان يوجهان مجتمعا توجيها متزايدا . ومن حيث ان الزمان احد العوامل الرئيسية للكفاية فانه حاسم بالنسبة للتبديد . انما الاهمية المتزايدة لقطاع معادلة بين الانتاج للاستعمال والانتاج للتبديد . بل ان الاهمية المتزايدة لقطاع النشاط الثالث ، او اشتغال الخدمات كما يسمونها ، ليست دلالة على وجود فرصة اكبر امام الفرد خارج حدود العمل الانتاجى لمواصلة الفايات التى رسبها حرا من ظروف الاغتراب . والناس الذين هم موضوعات للعمل من حيث هو «خدمة» يميلون الى ان يستعملوا وان يستهلكوا شأنهم فى ذلك شأن مصادر الانتاج ، ويدخلون ضمن مواد دورة التغير . وهذه الضغوط التى يمارسها الامران - الزمان كعمل والزمان غير الانتاجى - تفرز بصورة ملحوظة الميل المتعاظم فى العودة لا الى النفس فحسب وانما فى العودة الى الداخل للتزود بالثداء من النفس الجوانية .

وفى هذا المقام لا يبدو ان تحليل « فيل » يذهب بعيدا الى الحد الكافى . لان قرار الناس الى « الجوانية » فى الوقت الحاضر ليس مرادفا للرجوع القهقرى الى القيم التاريخية ، الى مقدسات الماضى . ان التماس الانتماء والاتحاد قد يمثل رغبة فى الامتلاك من جديد لصورة من الوجود وطائفة من القيم كان الاقرار بها من المجتمعات السابقة اتم واوسع . ومع ذلك فالتيار المضاد الحالى الممثل فى التمرد على الزمان ليس صورة من صور المحافظة على القديم ، ولا هو ثورى فحسب ، ولكنه ادنى الى ان يكون حركة تطور من الداخل وهى تحدث . وهذا امر له دلالة وسط مجتمع فقد التاريخ فبسلامته كذكرى للماضى واطار للوجود . ان الفوضى الى اهداف الوجود الذى يقرره هذا المجتمع فى حماسة شبه دينية هى الرمال المتحركة لحاضر متغير على الدوام (٣٧) . والمستقبل كنتيجة للامحه التى يصعب على الخيال

(٣٧) انظر ضمن تحليلات زوال الماضى كثنى كينستون : « فى المزم » نيويورك ١٩٦٥ وخموصا الفصل العنون « التغير الزمنى وتقدس الحاضر » .

إن يتغير منها ؛ غير متيقن من ناحيتين معا : من ناحية من حيث هو امكانية ومن حيث ما سوف يتطلبه ، ومن جهة أخرى فإن تشييع الماضي تشييعا ماديا زائدا عن الحد ، لا يبنىء من أيام تفشاه ظلمة العوز في المستقبل . (ونحن نتحدث هنا عن المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا التي تسير باستمرار في اتجاه يجعل منها جزيرة منعزلة عن بعض الحقائق القاطعة البارزة في حياة العالم) ، وأن مطالب حاجات الإنسان قد ملأت وقته وجعلت منه وظيفة لعله . والآن وقد نجح العقل في تفرغ الزمان من معناه فإن الوعى الموجه يصبح أن مما غير واف ولا ضرورى كاسلوب للوجود . وهذا الأمر سيتسع مداه عما قريب . وحقيقة الأمر أن الدفع الى العودة الى الجوانب لا يعدو أن يكون مرادفا للرفض الشامل للماضى والمستقبل . والتأكيد على انحاض هو ، كما بين كنيث كنيستون ، « رفض غير مباشر لقدره الآلية على وضع القيود على الزمان (٣٨) » . والنزول تحت الوعى ليس هو تذكر التاريخ ولا هو جعل الماضى في تعارض مع الحاضر . إنه افناء التاريخ منظورا اليه على أنه استعادة للماضى ، وعلى أنه « اخلاقية حية » . اعنى على أنه مجموعة من الانظمة والواصفات تمكن المجتمع من التماسك والديموم والتطور (٣٩) . وهكذا « بتشكيل قلب الوضع الزمانى » في الصورة الاجتماعية للفوضى ، ويظهر الضوء الخفيف لظله المبعثر على اضمحلال المجتمع اضمحلالا لا مفر منه .

يسهب كنيث كنيستون في تحليله البارع عن « الشباب المنحرف في امريكا » الى مناقشة بحث هؤلاء الشباب عن التكامل الشخصى والتعبيرية الفنية وقودية التجربة وثقافية الشعور وتفضيلهم الماطفة على العقل والخيال على الواقع (٤٠) . ويرى المؤلف أن فترة الشباب في امريكا هي فترة اغتراب مصدره الضغط الاجتماعى . وإنه من بعض ثمرات ذلك أن حياة من يبدو عليهم الاستقرار من الكبار في امريكا لا يخلو من الاغتراب (٤١) . الا انه رغم ذلك يمضى في بحثه فيضيف قوله : « ان ما هو معتقد في اغتراب الشباب الذين درسنا حالتهم ، كما هو الشأن في الاغترابات الصغيرة أو الكبيرة عند الاكثرين من غيرهم من الأمريكيين هو التند الجدرى أيا كان لمجتمعنا ، أو أى بديل لورى للوضع الراهن (٤٢) . أما انا فأرى ، على العكس ، أن التجرد على الزمان هو مد صاعد في الحياة الغربية التي تسير في تيار مضاد مباشر لتقاليدنا الفعلية الطويلة الامد . وما هو مضبوذ في العين الوسنانة ، غير صاحب الاسرار والغيبيات ، هو امكانية تحول بعيد المدى ، كما كان مفهوم الزمان ذاته . وإن

(٣٨) نفس المرجع ص ٣٨ .

(٣٩) فابل المرجع المذكور ص ١٠٥ وقابلها ونحوها ص ١٣٦ .

(٤٠) نفس المرجع ص ٢٨١ .

(٤١) نفس المرجع ص ٢٩٤ .

(٤٢) نفس المرجع ص ٤١٩ .

امادة ببيان الوجود على أساس نفساني يهدف بإنهاء السيطرة على الحياة التي تلقى التوجيه من الزمان ، وهو الأمر الذي يحدث على مدى العقلة المفرمة بالعمل ، وعقلة المجتمع الصناعي .

وان مظاهر التمدد الحالية هي من التصدد والدقة بحيث لا يمكن تسجيلها وتحليلها هنا . وهي تمتد من نشوة العوام التي يتيحها لهم الترانزستور المتجول الى البهجة السهلة النال المتحررة من قيود الزمان ، تلك التي يثيرها القفر بالظلمات ، وقد أصبح الآن هوبة تخبئ النفوس ، ومن فتنة الأفنية المميقة والبسطة تضيئ في المقاهي الى العالم اللازماني ، عالم الفن المصاصر الذي يعجد الهيكل الاساسي للون والشكل البدائيين (الفن البصري) والذي يستشف عن طريق « واقعية سحرية » عالما داخليا يخضع للاوى أكثر مما يخضع للانية ، ومن تيار الوعى فى الادب وانفيلم الى صورة الوجود الظاهر « اللامقولية » كما يصوره « بيكت » فى انتهاكه الصارخ للحياة القميسة بقائيس الزمان ، والبحث الدائب عن المشاركة والاحتواء والاندماج الذى يمتد من امادة بناء العلاقات الجنسية الى التماس موافقة الجماهير فى سياسة اليسار الجديد .

واخضاع الزمان للشعور فى الحركات السياسية للجناح اليسارى « الجديد » يتجلى فى المثاليين وهما تافهان كما هما مألوفان فى مقال كتبه دوجلاس فيشر يصف جماعة الشبان الكنديين (موسم سنة ١٩٦٦) بانهم أسرى لروح ومباهج اليسار الجديد .

وقد قال عن المتطوعين العاملين :

« ولقد بان من نتائج استفتاء الراى أخذ الأمور بروح الترخص والتيسير الى درجة غير مألوفة . والواقع ان كثيرا من المتطوعين أخبرونى ، فرادى ، أن الهنود الكنديين يسلكون السبيل الصحيح الى معالجة المتأهب التي نواجهها نحن هذه الأيام . وقد هرب عنهم أنهم غير متنافسين ، وخاضعون لتوجيه المجموع ، وغير عدوانيين ، ومتحررون من قيود التقويم والساعات . والمتطوعون يحبون فكرة اليوم ذى الأربع والمشرين ساعة وهم مشغولون فى كل ساعة من ساعات النهار ، إذ أنهم متاهبون طيلة اليوم ، ولكنهم يرفضون ساعات العمل الرسمية .

والمتطوعون قد التقطوا الروح التقاطا تاما لأنه ندر ان يوجد منهم أكثر من النصف يسخرون من أى نشاط كان (فى دورات تدريبهم) ، لقد كانوا يستوفقون السيارات المارة ويستأذنون أصحابها فى اصطحابهم بعض الطريق أو يستمعون أو يتشمسون أو يتناقشون (٤٣) » .

(٤٣) « اليسار الجديد كما يراه الآخرون وهو يسيل » فى البعد الكسلى ٢ ولم ٦ أكتوبر - سبتمبر ١٩٦٦ « غواطر من العنف » .

والامر الذى اقلق فيشر وحيره اكثر من ذلك هو أن اطراح الحياة الخاضعة لعمار الزمان قد تمشى جنباً الى جنب مع احتقار واضح للسياسة والسياسيين . فان « جميع الأحزاب السياسية والبيروقراطيين والخبراء : الكل على حد سواء » .

والحالة الأخرى هى عدم الاحساس بالزمان أو التوقيت الاستراتيجى أو التكتيكى الذى اتسم به « تمرد شهر مايو سنة ١٩٦٨ فى فرنسا » . لقد كان حالة جذيرة بأن تسجيلها الكتب الدراسية لوقف ثمرى لم يتطور الى ثورة لأنه لم يكن هناك أحد مستعد للاستيلاء على السلطة وتحمل المسؤولية التى تقترب بها . وآخر من يفكر فى ذلك الطلبة . ما من أحد كان على استعداد لذلك اللهم الا ديجول (٤٤) .

ومن التجارب الهامة فى الحياة اليومية أسواق مثلاً بسيطاً للكيفية التى يكون فيها التمرد على الزمان أمراً أساسياً للحياة فى مجتمعنا . ويمرر مكلوهان الاندلاع نحو الاحتواء الكلى فى آتية شاملة لكل شيء (٤٥) الواقعة فى الجيل الأول للتليفزيون الى الاحساس المصاحب أو عمق الاحساس المسمى لتجربة التليفزيون (٤٦) . وبواسطة الكهرياء فإننا نستأنف علاقات الأشخاص فيما بينهم كما لو كنا فى أصغر القرى (٤٧) واتى اسلم ، على العكس من ذلك ، بأن آخر ما تمخض عنه تنظيم الحياة بمقاييس الزمان ، الذى أنجزته الالكترونيات والمحركات النفاثة ، من شأنه أن يرسل ما للعلاقات بين الناس من كيف شخصى أو نفسانى . أن المدرس فى التليفزيون قد يكون أو لا يكون موهوباً ببعد يقرب من القداسة (٤٨) . ولكن الأمر المؤكد هو أن اذنيه لا تسمعانى وأن مينييه لا تريانى أو تمكسان صورى . أن العلاقات الوظيفية وغير الشخصية البحثة فى القرية النموذجية مسخ ولانيس : لأن الأشخاص موجودون أو يبدو أنهم حاضرون دون امكانية الاتصال بعضهم ببعض . أن الجرى وراء التعميد والابتهاج المكتشف حديثاً فى اللمس لا يرجع مباشرة الى الوسائط السحرية وإنما هو رد فعل على استبدادها ، وهو أخشى ما نخشاه لأنه استبداد لأشخصى .

(٤٤) هنا أرئت : « غواير من العنف » فى ٢٧ فبراير ١٩٦٩ ول هذا الصدد فان حركة الطلاب الفرنسية الثورية تشبه غيرها فى البلاد الصناعية فى تبايناتها الحادة للحركات الثورية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . لهذه الحركات كانت تقوم على افتراضات تاريخية ومقاييس مسبقة وإمارة الى درجة عالية بالظروف والتوقيت . أما الأولى التى تتحدى تنظيم السلطة ذاتها فى صورة مؤسسات قانونية فالها أقل اهتماماً بالاستيلاء عليها منها بكمز قبضتها على النشاط الإنسانى فالصراع للأقامة والمقاومة والتصرف لا يحدده الزمان ولكن متعدد قوى حيوية أهم ، وهو يأخذ شكل قناة مفادة أو ثورة قتالية روحية فى طريقها .

(٤٥) دولتو نيويورك ١٩٦٤ ص ٢٢ .

(٤٦) نفس المرجع ص ٢٢٦ .

(٤٧) نفس المرجع ص ٢٥٥ .

(٤٨) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

ان تحسس الطريق نحو الاتصال والتماس التماس فى العلاقات وهو ما يتميز به اسلوب الشباب ، يتضمن الاعتراف بتعريف نفسانى للوجود وبما يرضى تنظيم الحياة فى اطار الزمان . وهى حياة على درجة عالية من التعميل ، وبحيث مسبار الزمان واسطة واجراءات ، اكثر منه تجربة انسانية وطريقا عاما مهجورا لا يلائم السير فى طريق الوجود الانسانى الشخصى .

وابرز مظاهر التمرد الذى كنا نتحدث عنه هو الطريق العريض الذى انفتح من داخله بواسطة العقائير المثيرة لشهوة الجنس ولا يجوز التقليل من أهمية الافتتان بما يدخل فى منطقة اللا وى . . وبصفة خاصة فإنه قد قامت بين نفر من الشباب الأذكيا ذوى الحساسية حركة شبه طائفية ذات أبعاد واسعة بما لها من شطحات وسبل إلى معرفة الأسرار الروحية ، وبما لها من جماعات وبما لها من دعاوى بشيرية ، وبما لها من قادة مؤيدين ودعاة مبشرين بالانجيل الجديد ، وبما تنورط فيه من صراعات انفعالية ضارية مع ارباب السلطة فى عصرها . وما يعنينا بصفة خاصة هو كيفية انسلاخ الزمان من صورته المعتادة كأحد أبعاد التجربة . فى اطار حالة الوعى المتعالى الذى تفجره عقائير الهلوسة والتعليقات التالية على آثار هذه العقائير المستمدة من حالات ذكرها كوهين، تعليقات نموذجية ، وسيكون فيها الكفاية لتوضيح الأمر (٤٩) .

« أصبح الزمان لا بداية له ولا نهاية ، وبدأ فى بعض الاوقات وكأنه يتحرك بسرعة شديدة ، وبدأ فى اوقات أخرى غاية فى البطء . ومع ذلك نشد ما كان يدعشنى كلما نظرت الى ساعتى أن أجد أن ما مضى من الوقت قصير جدا (٥٠) »

« لقد قلت ان هذه (التجربة) قد بدأت كلها هذا الصباح فى الساعة الثامنة ، ولكنها بالطبع لم تبدأ . لقد بدأت فى مكان ما منذ ملايين السنين الماضية الحقيقية قبل أن تقيس الزمان بالساعات (٥١) » .

ونقطة ثالثة يجب ابرازها ، وهى : الخواطر - التى تذكرنا بروسو - التى يعيدها ذلك الحامض الى الأذهان .

ان تحرك روسو من العزلة ، من طريق الاتحاد مع الطبيعة والأشخاص ، قد استعاده بالرسم طالب من طلاب علم النفس مبينا تجربته تحت تأثير (مقار الهلوسة) .

(٤٩) سيدلى كوهين ليويوك ١٩٦٤ .

(٥٠) نفس المرجع ص ٣٣٧ .

(٥١) نفس المرجع ص ١١٩ .

لقد ازلت قلعة الرمال الصغيرة القريبة منى وسطت رمالى فوق شاطئه
محيط الوجود وقلت : والان الذهب لتجد نفسك وعش كما كنت تعيش من قبل .

وان فقدان ذلك الشعور الحاضر باتيتك ، انيتك من حيث هي منفصلة من
كل شيء عداها ، والاسترسال فى تيار الانفصالات الجارف من العواطف والحب
والكراهية حيث تكون مجتمعا مع كل شيء آخر .. ها هنا تجىء الجدة (٥٢) .

وكما ان (عقار الهلوسة) لا يوقف الزمان ، ولكنه يمدنا بمدخل الى مستوى
من الوجود لازمانى ، فانه كذلك لا يدفع الانسان الى (ما وراء) فائتى للطبيعة ،
ولكنه على الأغلب يوسع ادراك الما وراء فى حدود الامداد اللاواعية لوظيفة الخ والمقل ،
تلك الوظيفة الضافية ، وان تكن غير مرتادة . وكذلك فان الاتحاد ، وضياح الذات ،
وحالة التابلية والاتصال المتصاعدين ، التى كثيرا ما ترتبط بحالة الهلوسة ، ليست
من خواص الحامض . واذا كان استعمال عقاقير الهلوسة الأخرى قد ظفر بمقام
العصابة بين الشباب فان ذلك يرجع الى شيء جديد قد أوجده . ولكن مرجعه الى
انه المفتاح الى تراث من الوجود « منسى » محبوب منذ زمان طويل خلف الماسوية
الاجتماعية للنزعة العقلية الواعية .

وقد كتب سيدنى كوهين عام ١٩٦٤ مطلقا على الاستعمال المتزايد (لعقار
الهلوسة) باعتباره حركة من حركات التحرر :

« اما تبدو حالة الهلوسة الجنسية جذابة للغاية ، لان الكثيرين عاجزون من
تحقيق هذا الشعور من الاعتماد . انهم يحسون ان المعنى يمكن العثور عليه ، وهو
معنى ذو عمق يجاوز المعانى الدينية الباهتة ، وجميع الأديان المعروفة فى ايماننا
هذه . وانهم يحسون ان من الممكن ان يقوم معنى اعظم وقيم امتن وعلاقات أبهى
مما هو متاح لنا اليوم (٥٣) » .

وفى هذه النقطة نقول ان ظاهرة (الهلوسة) - كحالة وحركة - التى تبدو
كانها مظهر غير متسق لمجتمعنا (٥٤) تلقى الضوء على التغيير الواسع الذى ينهش
امعاده . والسائرون على طريق الهلوسة الجنسية قد كشفوا عن انفسهم الى ثبات
وانساق ملحوظين ، هدامين للنظام الذى يحكم فيه الزمان دنيا العمل . وفى المثال
الذى أسوقه من بين أمثلة متعددة يمكن تحليلها واستخلاص نتائج مماثلة منها ،
يلاحظ الانسان قسما ورفضاً ظاهرين لبنيان « الشخصية البيورناتية » تحت

(٥٢) نفس المرجع ص ٥ .

(٥٣) نفس المرجع ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٥٤) ان يصنع نتائج مفاد للمقل على هذه الدرجة الى ظل ما يلتفه حيلتنا ذات الطابع القطنى
العالى هو امر يرقى الى حدود الزواج : كوهين نفس المرجع ص ١٠٢ .

تأثير (الهلوسة) . وتعلق باحثة في علم النفس على مجموعة من الاختبارات كان مطلوباً منها اجرائها كجزء من التجربة فتقول :

« بعد عملية الرسم لشخص جاء اختبار (البندر جشتالت) وكان ذلك مصدر لهو بالنسبة لى وقد لهوت كثيراً باستعمال الورق فيه . كان هناك شعور بالبساطة وبالسخرية العامة من السلطة . وبينما كنت أعمل ذلك عرفت أنه كان يجب عادة أن اضع جميع الأشكال على قطعة ورق واحدة . وانى لملى حظ من ضبط النفس والاعتدال . وعلى أى حال إقلم تكن لى متاعب مع « البندر » . لقد رسمت أشكالاً حسنة وارتبطت بها ، وكان وضع كل ثلاثة منها تقريباً فى صفحة واحدة مصدر تسلية لى . بل اننى ربت الأمر بدهاء بحيث بقى لى فرخ ورق كامل للشكل الأخير . وكان ذلك شبيهاً بالاستسلام لضرورة حشو الفم بالطعام بينما نعلم أن ذلك مخالف للأدب . وانه لسرور عظيم أن تأخذ فرخاً كاملاً من الورق للشكل الأخير . لا بل انى وضعت على نهاية واحدة منه (٥٥) » .

لقد دعا واحد من جماعات الهلوسة الجنسية اهل الشاطئ الغربي الأمريكى الى « الغاء الحقيقة » . ترى هل هذا هو برنامج هذه الجماعة أم أنه شعار برنامج اجتماعى ؟ كلاهما صحيح ، فإن (عقار الهلوسة) لا يقبل شيئاً سوى إطلاق الميول الكامنة على نطاق واسع فى طوايا المجتمع . فالحقيقة التى يرد الغاؤها هى تلك التى حددتها بصورة شاملة الديناميكا الداخلة للتكنولوجيا المحكومة بمقاييس الزمان . أن الذين يريدون أن يخلعوا رداء التقليد الوجيز اللامع ، وتقليد النشاط العقلى والاتجاه الى الموضوعية فى الغرب ، يجدون الراحة فى تعاطى المخدر . ان تعاطى هذا المخدر بكميات كافية يفك أسرار الكبت لدى الفئات المتعلمة وبخاصة من كانت لهم علاقة بالسلوك والتفكير المنطقى القائمين على اختصار الواقع والعمل لتحقيق البقاء والهدف الموجه (٥٦) . وإن ما قد تشكك فيه الكثيرون قد تأكد فى أغلب الأحيان : انه وراء قيود عالم الوعى المبهجلى ، والعمل والزمان ، يكون الخلاص .

إن دلالة التمرد العالى على الزمان لا يمكن توضيحها توضحها كافياً . وتبين مظاهر توافره التى تحصنها أنه جزء من تيار عام فى الحياة القربية ، وخاصة من وقت أن أعطاه روسو صيغة كانت جد مناسبة . والتيار المشهود مازال قطعاً نفمة خافتة انطلقت وسط إيقاع موسيقى عال . ومع ذلك فهناك من الدلائل ما يشير الى أن الصراع الضفى واسع الانتشار قد يأخذ أعظم الأبعاد أهمية . ومن المنتظر ان يكتسب التمرد قوة لأن ظروف الحاجة الساحقة التى حركت عالم العمل العقلانى فى الغرب

(٥٥) نفس المرجع ص ١٤٥ .

(٥٦) نفس المرجع ص ٤٢ - ٤٤ .

لم تعد تلقى قبولا لدى الأغلبية . وليس هناك قصاص رادع ضد ما كان في وقت من الأوقات نوعا من ترف الكسل والخرق . وحتى عندما يكون البقاء هو المشكلة على مستوى السياسة الدولية فإثنا تكون قد دخلنا بعد اللامعقول . ان مشكلة البقاء الدولي عن طريق نظام الأمور الحالي هي فضلا عن ذلك مقصورة على صدد قليل من استقرارية التكنوقراطيين ومراقبي السلطة . وان هناك تقوية أخرى لهذا الاتجاه نجدها في انه في الوقت الذي يصبح فيه الزمان احتكارا للإجراءات ، والعمل حقا للانسان ، فإن اناس يجدون انفسهم وقد واجهتهم الرغبة أو الالتزام بتفريغ مركب العمل مقيسا بمقاييس الزمان من الوجود ، لولا أن الحاجة الى خدماته أكبر مما كانت عليه من قبل في الجانب الاستهلاكي للعملية ، وهنا يتصاعد التناقض لأن ملء الزمان بنشاط استنفاد فائض الانتاج ، يبدو أكثر خطوا من المنى عن الزمان كاطلر للعمل . وليست هناك ضرورة منطقية تحتم أن اختفاء العمل ذي المعنى ، وربما ايدولوجية العمل في الحضارة الصناعية ، يعني أن « الفن حين يرتبط باهتمامات أخرى وبالكسل ، يبدو مستعدا ، ويطرق كثيرة ، نفسيا واجتماعيا ملء الفراغ الذي تركه شافرا » (٥٧) ، كما قد قيل أحيانا كثيرة . والفن هو تعبير عن الحقيقة غير المحددة بقاعدة الزمان الضرورية . ومادام الزمان يسيطر على الوجود من خلال المعادلة بين الانتاج والاستهلاك ، فإن الفن سيبقى تسلية أو احتجاجا فحسب . والعمل البسيط لمشكلة الانتاج لا يدخل في حبة من الوجود يمكن تعريفها بمعايير غير زمانية . . وفي العالم العاصر نجد أن الزمان بوصفه منظما للاستهلاك ، لم يسعد بعد بتبرير الاتجاه العقلي المكتسب على أنحاء مختلفة عن طريق العمل عندما أصبح مقصد الوجود . وتقول بوجه خاص انه في مواجهة الانحسار المادي والمجاعة البازغة في أجزاء كثيرة من العالم ، لا يزال هناك قدر من الهراء لا يمكن قمعه حول نشاط الاستهلاك على نطاق كبير ، أي السرف والتلف . والزمان المملوء بالاستهلاك له مظهر اللامعقول ، في النهاية كأنه قهر يمارسه العقل . والزمان المملوء بالاستهلاك لا يخلو من المعنى وهي أن التجرد على مظهر الموت وتدمير الذات (٥٨) . وهناك حقيقة لا تخلو من المعنى وهي أن التجرد على الزمان يسير غالبا حافي القدمين مهلهل الثياب . وواضح أنه صنو للمعذبين في الأرض . وهو كثيرا ما يحمل تجربة لتزهد جديد مهيا لتبديد الإيمان دون نهاية بقيم انسانية أولية . ويكون هذا ممكنا فقط عندما يكف الزمان عن أن يكون العملة الجارية بين الناس جميعا . ولكننا اذا أخذنا الأمرين معا ، وهما الميل القالب لمجتمعنا ورد الفعل الذي يولده ، وجدناهما متآزرين في تصعيد قلقلة الحياة الاجتماعية الغربية .

(٥٧) جيلوتوريرى : « الوقت والفراغ والفنون » في مجلة فيوجين هسند صيف ١٩٦٦ ص ١١٦ .

(٥٨) أنظر التحليل الشاق من القال . والنشيان والإمياء بقلم دوتريو في مجلة اسبرت هسند ٦ سبتمبر ١٩٦٦ ص ٢٩٥ - ٢٩٨ . ان آخر تسلية يمكن أن يجدها الانسان في المجتمعات المختصرة هو التفسير ، وعلى نحو أدق الذات لان حرية البقاء قد شفت كالفراغ الأخرى .

ان نمط المجتمع القائم على الانتاج والاستهلاك معا ، يدب في اوصاله ميل الى الموت ، وهو نوع من ضرورة استهلاك الذات وتدميرها . والانسحاب من العقل على نحو ما اينما يتأخم في بعض المواطن تهافتا في غريزة البقاء . والمجتمع العقلي في قمة انجازاته يبدو أكثر ضالة من أى وقت مضى . ويتسبب في ان يقوم في ثنايا بنائه الظروف التي من شأنها أن تؤدي الى تدهوره الداخلي . وهناك أمر لا يقل عن ذلك أهمية بل هو أكثر سخرية : هو أن حركة بسط اهاب الزمان التي صارت قاهرة ومتسلطة ، مازالت مستمرة في الدول البروقراطية المتقدمة يحبوها في ذلك اكتشاف الحقيقة من الداخل ، وكذلك تظهر قارات شاسعة آخذة في النهوض من جمودها اللزمني (كما يقاس بمقاييس النمو الاقتصادي) . وهي وقد طالما امتدت اليها يد الطبيعة بالقهر والعصف ، تواجه بضرورة اكتشاف الصور الجدلية للوجود الذي وعدت به الأحكام القاسية لعالم الزمان العقلاني . ويتراعى في الأفق نشوء تناقض بين الأبعاد التاريخية والمالية . ففي اللحظة نفسها نجد حصارا التقنية المصوبة في آتالي الزمان — مثلها مثل ثقل الطبيعة الخالق الذي قهرته — يبدو وكأنها تلقى على كواهل الناس عبئا ثقيلا يقهرهم على أن يلتمسوا النجاة بحياتهم الى بعد الوجود ، ذلك البعد الأساسي للزمني الذي لا ينحل الى غيره .

الكتاب : فريد كالورين

- دس العلوم السياسية والاقتصادية بكلية كنوكس لاهوت البروتستانتى بجامعة تورنتو ، والأخلاقيات الاجتماعية بكلية اللاهوت البروتستانتية بجامعة استراسبورج .
- كان سكرتير الدراسات لحركة الطلاب المسيحيين بكنسدا . وهو يقوم الآن بالتدريس في قسم العلوم الاجتماعية بجامعة أوتاوا ، كما يشترك في تحرير مجلة «جيلنا» التي تصدر في مونتريال .

الترجم : الدكتور عثمان امين

- كان رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الآداب .
- عضو المجلس الأعلى للفنون والآداب .
- عضو شرف الجمعية الفرنسية من أصدقاء ديكرت .
- له ١٦ مؤلفا في الفلسفة ، كما أن له كثيرا من الترجمات والتعليقات .

عن الجزيئات الحيوية

بقلم
جول دوشين
ترجمة
د. زكريا فهمي

إلى علم النفس

المقال في كلمات

يتحدث الكتاب في هذا المقال المتع من التقدم الكبير الذي
أحرزه علم البيولوجيا في سر أعمق الحياة مستعينا بما تلتفت
به الأفاق العلمية من مفاهيم جديدة ، ومن دراية بخصائص
الحامض النووي للخلية ، تلك الخصائص التي تؤلف العنصر
المشترك لجميع الكائنات الأرضية الحية . أنه يستعرض الآراء
الحديثة عن أصل الحياة ، متناولا مرحلة ما قبل الحياة ، وتطور
الحياة من اللباني السحيق إلى الآن ، والتفريات التي لا بد أنها
طارت على جزيئات الحامض النووي . كما يتحدث عن الفرد
وارتباطه بالكون الخارجي بقوى شاملة وكيف أن الإنسان حيوان
اجتماعي . ويتناول كذلك اللاشعور والاشعور مبينا إمكان ردهما
إلى حقيقة أساسية واحدة ، هي تركيب جزيئي في أعمق سياقه
الكوني . وبين لنا أثناء تناولنا الشعور واللاشعور أن الفرض
القائل بأن الحياة ليست قائمة على الكربون بل على السيليكون
فرض لا يؤيده النظريات العلمية اليوم . أما من حيث منشأ

الأفكار يرى أنها ترجع إلى انبعاث قوى صادرة عن اللاشعور ، وإلى عملية استغلال قائمة على الملاحظة الموضوعية ، كما يرى أن الفرق بين الإنسان وغيره من الكائنات الحية يرجع إلى قدرته الكبرى على اظهار أعماله لاشعوره . أما التفاسير والتنازع فهما في رايه لازمان لبقاء الحياة ويتمثلان في عملية الانتساب الطبيعي . ويتناول الكاتب أيضا مسألة الجنس والتكاثر وعلاقتها باليسل إلى المشق الذي تتمثل غايته الوحيدة في استعراة الجنس . أما النوم والإحلام ففيهما يتحرر الفرد تماما من التفاعل مع الأفراد الآخرين ، ويتيحان له تطفلا أعمق في عوالم اللاشعور يؤدي أحيانا إلى فهم أدق للشفرة الوراثية . أما من حيث الدين فيرى الكاتب أن الإله بخلتيته ولانهائيته هو جوهر الكون . ويشكل بالنسبة للإنسان مركزا دائما للنظام الشامل .

١ - مقدمة :

في السنوات الخمس عشرة الأخيرة ، أحرزت البيولوجيا تقدما كبيرا الذي أعظم الآمال ، ولكن على الرغم من أهمية الكشف ، التي تحققت في ميدان علم الوراثة الجزيئية بصفة خاصة ، فإننا ينبغي أن نعترف بأنه ما يزال علينا أن ننجز الكثير إذا ما أردنا أن نقدر الحياة ككل ، وضمنها الكائنات العضوية العليا ، على أن البحث يواجه تعقد المشكلة بنجاح متزايد باستثماره متحركا في اتجاه جديد تماما ، لا على مستوى الخلوية فحسب ، بل على النطاق الجزيئي والدرى أيضا . والواقع أن هذا التغير الجذري في طرق التفكير هو الذي قد يمكن عالم اليوم من دراسة ميادين لم تكن مطروقة إلى الآن ، حتى ولو كان ذلك من وجهة نظر تأملية إلى حد كبير ، وذلك من طريق تزويده بمجال لطرق جديدة في التفكير . وهذا ينطبق بصفة خاصة على علم النفس ، الذي لم يصبح بطل ، على ما يبدو ، موضوع تفكير ينصب على المستوى الجزيئي .

وهدفنا الوحيد هنا أن نقترح منهاجاً لدراسة تحليل المفاهيم ، يقوم على أساس مفاهيم جزيئية الحامض النووى المذهلة ، التي تولى المنصر المشترك لجميع الكائنات الأرضية الحية ، والتي هي العوامل الأساسية للمعلومات التي تتحكم في

تركيب الأنزيمات ، ومن ثم في تركيب جميع الجزيئات الحيوية . ولابد بالضرورة أن تصاغ دراساتنا في عبارات عامة إلى حد كبير ، بل غامضة أحيانا .

والواقع أننا نستطيع أن نتخذ وجهة نظر تؤدي إلى فهم أوضح لحقائق أولية مثل اللاشعور والشعور ؛ إذا ما أخذنا بالفكرة التي انحاز إليها « كريك » ، و « أورجل » (١) ، والقائلة أن الشفرة الوراثية نفسها قد تعرضت لعملية تطور بطيئة (وأن كان يتعين علينا أن نعتد على آلية عامة إلى أبعد حد ، لا يمكن تجاهل سياقها الخارجي) .

وبنفي أولا وقبل كل شيء ، أن نلخص بإيجاز الآراء الحديثة الخاصة بأصول الحياة ، وذلك حتى نفهم العناصر الأساسية للمشكلة .

٢ - أصول الحياة :

يلج عمر أقدم الحفريات التي اكتشفت حتى الآن نحو ثلاثة آلاف مليون سنة . ولكن مفهوم الحفريات الجزيئية (٢) المستحدث منذ وقت قريب يتيح من ناحية المبدأ إمكانية كشف آثار من الحياة أقدم حتى من الحياة السابقة ، وذلك بسبب الثبات العجيب الذي تتميز به بعض الجزيئات الحيوية التي يمكن أن تبقى بعد تحليل تركيبها العضوي المورفولوجي ، وهكذا ، فإن الأربعة أو الخمسة آلاف مليون سنة المحددة عادة لعمر قشرة الأرض قد تصبح بسرعة زمنا أقصر بالنسبة إلى فترة الأعداد الكيميائية الضرورية ، المعروفة باسم المرحلة قبل الحيوية ، التي مسبقا نشوء الكائنات الحية . هذه الصعوبة المحتملة يمكن ألا تنشأ ، لأن السديم الشمسي الذي نشأت منه الأرض ، اشتمل بالفعل ، استنادا إلى بعض الكتاب (٣) ، على مرحلة نشاط تمهيدى من هذا النوع .

وإيا كان الأمر ، فإن جزيئات الحامض النووي الضخمة (التي يمكن أن يصل وزنها الجزيئي إلى ١٠ أس ١١) قد تعرضت لتفريعات هائلة خلال مجرى تطورها . ولا يرجع هذا فقط إلى أن الشفرة الوراثية ، التي تقوم الآن على أربع قواعد بيورينية وبيريميدينية معروفة ، ليست إلا حالة عابرة ، وإلى أن الحياة قد تطورت في الماضي السحيق ، على أساس كمية من المعلومات أكثر تقييدا إلى حد كبير . بل ينبغي علينا

F.H.C. Crick, J. Mol./Biol. 22, 267, 1966; L.M. Orgel, *ibid.*, 22, 281, 1966 (١)

M. Calvin, chemical Evolution Oxford, Clarendon Press, 1969. (٢)

M.H. Studier, R. Hayatsu and M. Anders, *Geochimica et Cosmochimica Acta*, 32, 151, 1968. (٣)

أيضا أن ندرك ، وهذه هي النقطة الأساسية في بحثنا ، أن الأحداث الجزيئية لا يمكن عزلها ، وأنها في الواقع وثيقة الارتباط بالبيئة الكونية .

هاتان الحقيقتان المترابطتان تتضمنان ، إذن ، مبدأ فعل ورد فعل ينزع العلماء في كثير من الأحيان الى تجاهله بسبب ما ينطوى عليه من تعقيدات ، ولكن هذا المبدأ سيؤلف موضوع بحثنا .

٢ - الفسرد :

إن الحلزون المزدوج ، ذلك التركيب الفراغي البديع والثير الذي أوضحت له دراسات حيود أشعة أكس (١) ، ليس إلا نموذجا مثاليا للحقائق المختلفة التي توجد فعلا في الخلية الحية ، والحامض النووي لا يصبح ذا أهمية في الواقع إلا عندما يقوم بعمله ، وعندما يمكن أن يكون تركيبه وتشكله مختلفين الى حد كبير . ويمكننا على الفور ، انطلاقا من هذه الحقيقة ، أن نستطرد قائلين أن الكائنات الحية نفسها لا يمكن أيضا أن تدعى لنفسها أية فردية حقيقية : لأنها مرتبطة بالكون الخارجي كله بواسطة قوى شاملة (قوى الجاذبية والقوى الناشئة من مصادر كهربائية « كقوى فان درفال ») . وليس هناك من يعرف الآن التأثير الصحيح لهذه القوى ، التي يمكن الى جانب إحداثها لتأثيرات سمعية وبصرية وشمية أن تقوم بدور هام بصفة خاصة لدى السيكلوجيا الجماهيرية ، ولكن من الواضح أن التفاعل المتزايد بين أفراد جماعة ما من شأنه أن يؤدي الى تأثير يرداد أضعافا لشخصيتهم باطراد : أي أن السمات المميزة للفرد الواحد تنزع الى التحول بما يتناسب مع تفاعلها ، مدعنة لتركيب هو تركيب المجتمع ، وهنا توجد ، كنوع من الاجراء التعويضي ، سمة جديدة تؤثر على نحو ضار بالأجزاء الفردية المكونة للكل ، والقول في هذا الصدد بأن الإنسان حيوان اجتماعي ، إنما هو تأكيد بان لديه نزعة متأصلة للتخلي عن عزله من أجل الاندماج (والتلاشي جزئيا) في إطار أوسع . هنا تكمن بلا شك ، أصول النظريات الجماعية المثالية ، التي وضعت بسبب غريزة هامضة ، في مقابل مذهب التحرر (وهذا الأخير مثال للحاجة المضادة ، لأنه ينطوي على تقديس للفرد) .

٤ - اللاشعور والشعور :

يمكن ، كما أوضحنا ، اكمال تطور الأنواع ، على النحو الذي تخيله المفكران

J.D. Watson, Molecular Biology of the Gene, New-York W.A. Benjamin (1) Inc; 1968.

الكبيران « لامارك » و « دارون » ، يتطور جزئى اولى (١) ، وهكذا فان نظرتنا للحياة فى الوقت الحاضر لم تعد منفصلة عن تاريخها . ومن ثم فان هذه النظرة شاملة ومتماسكة على نحو يمت على القبة ، وتزودنا بمديد من الافاق . فضلا عن ذلك ، فان جعل السدم ، أو جو الكواكب البدائى على الأقل ، مستقرا لاصل الحياة ، يشير الى ان العملية ليست بالضرورية وقفا على الأرض ، وانها قد تكون على النقيض ظاهرة كونية شاملة . وتحتوى المجموعة الشمسية على سلسلة كاملة من المواقع التى يمكن فعلا ان تكون العمليات المولدة للحياة قد قامت فيها بالعمل فى وقت ما . وتمثل هذه الحقيقة بوضوح قاطع فى النيازك المتفحمة ، فهى اجرام سماوية نشأت على الأرجح من هذه المجموعة ، ولكنها مستقلة تماما عن الأرض ، وتحتوى بلا شك على جزيئات عضوية (٢) ، كيمضى قواعد الحوامض النووية ، بل تحتوى كذلك على « البريستن » و « القيتين » ، وهما مادتان شبيهتان بالكورونيل . ولا يستطيع احد حتى الآن اثبات ان هذه الجزيئات لقد تطلعت من فترة نشاط بيولوجى ، مهما كان بدائيا . ولكن حتى لو كانت هذه الجزيئات تركيبات غير مولدة للحياة ، فلنا يمكننا على الأقل ، ان نستنتج ان الجزيئات اللازمة للحياة يمكن ان تتكون خارج الأرض .

وهكذا يمكن ان نصل الى نتيجة مؤداها ان العملية السابقة لعملية الحياة ظاهرة عامة لا بد ان تحدث بين كواكب عالم المجرات ، بشرط ان يكون ضياء النجم الذى تدور حوله هذه الكواكب ثابتا بدرجة كافية لفترات تبلغ عدة آلاف من ملايين السنين ، وان تكون المسافة بينهما مناسبة فيما يتعلق بدرجة الحرارة . وهكذا يمتد بصريا لينظر الى الحياة بوصفها تقدما مطردا ، على نطاق كونى (حسب ظروف التطور التوكبى) . وعلى الرغم من انه من المستبعد الى حد كبير ان تكون الحياة قد تجاوزت فى تطورها ، فى مجموعتنا الشمسية ، مرحلة أولية للغاية ، فان من المشجع مع ذلك ان تصور ان اتواجا متقدمة من الكائنات ربما تكون قد تطورت فى مكان ما فى أعماق مجراتنا . والواقع ان جزىء الحامض النووى ، مثله مثل النجوم والمجرات ، يتأثر خلال مجرى تطوره بالتفاعل مع العالم الخارجى (من خلال الاصطدامات ، والاشعاع ، والاضرابات الكهربائية والمغناطيسية) ، ومع القوانين الكونية الأساسية . أى ان الطريقة التى تمثله بها لا يمكن ان ينظر اليها الا على انها تصور مثالى ، على حين ان الحقيقة ، وهى مختلفة الى حد كبير ، تتضمن عددا كبيرا من الانحرافات . وهذه هى العملية التى يصبح بواسطتها الحامض النووى مرتبطا لا بالمكان وحده (أى يصبح له تركيب ثلاثى الأبعاد) بل بالتقدم فى العمر أيضا

J. Duchesne, *et l'évolution chimique et L'origine de la vie* (Bull. Acad. Roy. Belg. 48, 1427, 1962 . (1)

J. Duchesne, *Science Journal*, 5, 33, 1960. (2)

الزمان) ، والطفرات ، اى بالتحولات السريعة ، بل ما يمكن ان نسميه بالتحولات
الداخلية والانمكاسية .

الا يكفى لتقدير المفزى التاريخى لهذه العملية ، ان نؤمن الفكر فى حالة مشابهة
هى حالة علماء البلوريات الكلاسيكيين ، الذين نظروا بالمثل ، الى بلورهم فى حالتها
النقية على انها نموذج كامل لعنصر توكيبيى اولى ، اما الآن فقد علمنا البعث الحديث
ان العيوب الموجودة فى التركيب البلورى (امنى الانحرافات عن النموذج المثالى
الاولى وهى انحرافات قد تكون تافهة) هى على وجه التحديد التى تنتج بعضا من
اهم خواص المادة واكثرها فاعلية . واذا طبقنا نفس منهج البحث على جزئى الحامض
النوى الذى يمكن ان يقارن بالبلورات لانه ضخم بدرجة غير عادية — يحتوى على
الف مليون ذرة تقريبا — فاننا نملك ان العيوب التى ينبئى الا يخطط بينها وبين
العيوب ، بالمعنى الخلقى ، والتى تقوم البنية الخارجية بادخالها على نحو ما فى
التركيب المثالى ، هى على وجه التحديد ، التى تحدد الخصائص الحقيقية الاصلية
للكائن الفرد الذى يحتوى عليها ، وبالمثل فان الارتباط الوثيق بين الجزئى وبينته
يفسر الاختلاف بين الافراد المنتمين الى نوع معين والمنتمين الى طوائف مختلفة
من الكائنات الصفوية على حد سواء : ذلك لان التجربة الكونية ليست لفردة فى
نوعها . على انه ينبئى ان يلاحظ ان كل اختلاف فى البيئة لا يؤدي حتما الى تمزق
المادة الحية . ذلك لان هذه المادة يمكنها الى حد ما ان تحتفظ باستقلالها الذاتى ،
ويرجع الفضل فى ذلك الى ظاهرة التنظيم الذاتى ، التى تصلح العطب وتعيده الى
حالته السوية .

على ان من الواضح ان العيوب المختلفة لا يمكن ان تتراكم فى جزئى بلا حدود ،
تماما مثلما لا يمكنها ان تتراكم فى بلورة دون ان يؤدي ذلك الى نتائج وخيمة ،
والواقع ان هذا النطاق الحرج هو الذى تنقصر فيه ، بالتحديد ، قابلية الموت
والبلاهة ، كما هى الحال فى التفريزات الكيفية التى تطرا عند درجة حرارة حرجية
معينة . ومن الجلى ان الجزيئات الصغيرة ، كجزئى الماء المتواضع ، الذى يتألف من
ثلاث ذرات فقط ، لا يمكن ان تشترك فى هذه العملية ، بل انه لو حدث ، بمحض
صدفة سيئة ، ان ازيلت من هذا النظام ذرة ايدروجين واحدة فقط ، فان خواص
المجموعة الناتجة لا تعود تحمل شبيها للمادة الاصلية . ولكن ازالة ذرة واحدة من
جزئى ضخم بتأثير البيئة ، وهى ازالة قد لا تغير التركيب بدرجة تكفى لكشف التغير
بواسطة طرق ملاحظتنا ، على الرغم من الفاعلية الهائلة لهذه الطرق ، هذه الازالة
قد تحدث مع ذلك تغييرا اساسيا فى آلية التكاثر (اى انها قد تحدث بمض التغير
فى الخواص الوراثية) . ومن ثم فان العيوب العامة هى العيوب التى تحول بين
التكاثر وبين الحدوث على نحو خال من الخطأ ، كما يمكن ان يحدث لو قدر لتركيب
الخلزون الذى يتحكم فى الوراثة ان يبقى سليما . ولكن هذا التحكم على المستوى

الاصغر لابد ان يسفر عن نتائج تتجاوز نطاق التنوعات بين الافراد . فلو ان جميع الكائنات المنتمية الى فئة ما (وخاصة الانسان) كانت مكونة من عناصر نموذجية فربما كانت النتيجة كئيبة الى حد ما ، ولكنها لا تكاد تصل الى حد المأساة . ولكن الحاجة الى عيوب تثبت ان الفرد هو ، أساسا ، مرآة الطبيعة ككل ، وبعبارة أخرى ، فان اللاشعور ليس الا جلة العيوب التي تكتسبها الجزيئات الوراثية بالفرد خلال مجرى تلوينها الطويل المضطرب . اما بالنسبة الى الشعور فانه يشغل أساسا نسبة كبيرة الى حد ما من تلك المجموعة الهائلة من المعلومات الموجودة في كل فرد ، والتي يمكن ان يلتفت نظره اليها . ومن ثم ، فان النمو الطرد في الفكر الشموري ، خلال مجرى التطور ، انما هو نتيجة تفصيل تركيبى في نقل الشفرة المرتبطة بتطور الجهاز العصبى المركزى ، وهو تفصيل يمس تفاعلات الجهاز مع العالم الخارجى . ويمكن ، اذا نظرنا الى الشعور واللاشعور في هذا المجال الجديد ، ان نردهما الى حقيقة اساسية واحدة ، هي تركيب جزئى في اعماق سياقه الكونى .

اما بالنسبة للفرض القائل بان الحياة ليست قائمة على الكربون ، بل على السليكون ، فهو فرض لا يمكن دعمه اليوم . ويرجع ذلك على وجه التحديد الى ان قابلية التكيف اكبر كثيرا في الجزيئات ذات الروابط المتقاربة منها في مركبات السليكون مهما كانت سمة حيلة هذه المركبات . والواقع ان هذه الطائفة من الجزيئات تتجلى فيها تلك الخاصية التي هي شرط اساسى للحياة ، وامن بها استقرارا يكفل المحافظة على الحياة ، مقترنا بعدم استقرار نسبى يمكنها من الاستمرار في البقاء عند حدوث اضطراب من الخارج . اى ان نوعا من المرونة هو عين الشرط اللازم للحياة . وفضلا عن ذلك ، وهذا يقدم لنا دليلا آخر ، فان النيازك لا تحتوى على كمية كافية من مركبات السليكون ، ومن ثم فانها تشير الى تطور كيمائى قائم على الكربون .

• - منشأ الأفكار :

من الواضح ان كل شخص يحتوى في داخله على منبع للأفكار ، وهذا بلا شك هو السبب الذى جعل ذهن « ليونيبوس » و « ديموقريطوس » و « بلومينديس » . و « هرقليطس » ، وغيرهم ، يتفق على ما يبدو تلقائيا من اعماق المفاهيم لا اكثرها فطرية ، وهى المفاهيم التى لم يكف الفكر البشرى مطلقا من التشكل على اساسها . فعولاء الفلاسفة قد ارسوا قواعد أفكارنا من المكان ، والاتصال ، والانفصال ، والزمان ، والتطور . ولا يكاد يوجد شك في ان ما يسمى بعصيرتهم الخلاقة يرجع الى انبعاث قوى صادرة عن لا شعورهم ، بقدر ما يرجع الى عملية استدلال منطقية قائمة على الملاحظة الموضوعية للأشياء ، ألم يؤمن « اينشتين » نفسه ، كما جاء على لسان

« ماكس بورن » ، بقدرة العقل على الحدس فيما يتعلق بالقوانين المتحركة فى خلق الله للكون (١) بل لقد تمكن مفكرون كبار آخرون ، من بينهم أفلاطون صاحب نظرية الحقيقة الموضوعية للأفكار ، وسبينوزا ، وليبنتز ، تمكنوا قبل أينشتاين بوقت طويل من ادراك وجود آلية مماثلة .

كذلك قام لوكريتيوس ، وهو معاصر ليوليوس قيصر ، بالتعبير على نحو رفيع عن اعتقاده فى وحدة الظواهر الطبيعية ، إذ أكد ، فى محاولة للتركيب جذرية بالأعجاب ، ان الأرض ، والقمر ، والنجوم ، وجميع الكائنات الحية ، نتاج لآلية واحدة مرتبطة بحركة الذرات ، التى تتألف من نوع واحد من المادة وتتحرك فى الفضاء .

والواقع أن الفرق بين الإنسان وجميع الكائنات الحية الأخرى يرجع فى النهاية الى قدرته الكبرى على اظهار أعماق لاشعوره ، أى أنه يمكننا القول أن الحيوانات افضل تكيفا مع الطبيعة ، بمعنى أن قدرا اقل من لاشعورها طليق ومتاح للفهم . ومن الواضح أن وجهة النظر هذه تنطوى بالضرورة ، على الفكرة القائلة بأنه لا يوجد اختلاف نوعى فى جوهر حياتها ذاته . على أن تغير المدى الذى يتحول اليه اللاشعور الى شعور فى عالم الحيوان يجعل الإنسان ، وخاصة عندما يكون عبقريا ، مختلفا من الحيوانات الى درجة يصبح معها هذا الاختلاف فعلا مناظرا لاختلاف نوعى بين الإنسان والحيوان .

٦ - التضامن والتنازع :

من الواضح أن استمرار الخط الممتد بين الماضى السحيق وبين حياة الفرد المعاصر يرجع الى قدرة على التكيف والارتفاع ، وهى قدرة اتاحت التغلب على عدد لا نهاية له من العقبات القادرة على وضع نهاية للتطور ، أثناء عملية الانتخاب الطبيعى . ومن ثم فإن البقاء يتوقف أساسا على ابداء هائلة للحياة ، ولا بد بالضرورة أن يكمن فى الكائنات الحية شعور دفين بالمعدونية ، وبالتالى ، فان التضامن والتنازع مرتبطان فى عملية التطور ، وهذا يتفق مع رأى هرقليطس ، الذى قال ان عملية الوجود كلها قد تمرض لخطر الفناء لو قدر للتنازع بين الإنسان والآلهة أن يختفى .

للتصور مجموعة من الأفراد لا تحكمهم إلا قوى التجاذب أو التضامن ، فهذا التصور يساعدنا على فهم الحاجة العميقة الى التنازع . ذلك لأن الوعى الفردى

فى هذه الحالة ينزع الى الاختفاء ، واذا قدر لهذه العملية أن تطول ، فان الفرد قد يخفى باطراد ، ليحل محله وعى اعلى ، ولكن أية حركة جماعية تضم دائما تنافرا يبعد النظام الاصلى للأشياء ، ويكفل بقاء عنصر الوحدة ، ومن هنا فان قوى التنافر هذه ، اللازمة لتكوين الكائن الحى فى جميع مراحل نموه التطورى ، تكفل له الوقاية . ويمكننا ، من وجهة النظر هذه ان نفهم ذلك التوازن العجيب بين القوى المتضادة ، وذلك عن طريق ارجاع السمة المتحركة فى سيكولوجيا الحيوان والانسان الى مبدأ التماثل . ومع ذلك فان الكائن المصنوع يتألف من آلاف الملايين من الخلايا التى تخلق بدورها ، عن طلبها الدائى لتكون نظاما جماعيا ذا طبيعة اعلى . ومن ناحية أخرى فان هذه الخلايا تعيش فترة حياة محدودة . وقد تعلقت التضامن لان كلا منها متخصص الى حد كبير ، بحيث انها تعتمد بعضها على البعض بدرجة كبيرة . والواقع انها تخلق من الحياة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كان يمكن فصلها عن الفرد وزرعها فى أوان زجاجية ، اذا توافرت ظروف ملائمة .

٧ - الجنس :

البروتوزوا (الحيوانات الأولية) وهى كائنات عضوية وحيدة الخلية ، تتضاعف ، ومن ثم تبقى وتتكاثر دون تدخل ظواهر جنسية (١) . أما بالنسبة الى التكاثر الجنسى فيبدو أنه أحد مظاهر التطور الذى يسمح بتجدد الأثر الوراثى ، أى تجديد النظام فى حالة من الفوضى العارمة ، واتى حالة الجنس البشرى ، حيث يكون للنظام ، الرجوع الى التطور الأعلى للشعور ، أهمية بالغة ، فان الميل الى العشق يحدث نوعا من التفاعل الذى يتعارض مع التفاعل الميل للجماعة ، على الرغم من أنه ينطوى على عدد قليل من الاصماء . واذا طبقنا مبدأ التماثل هنا أيضا فينبغى أن نترف بأن الغاية الحقيقية لهذه الحالة هى تخليص الفرد من حالته الشعورية ، التى يمكن أحيانا أن تبدو عبثا ثقيلًا ، وانماجه فى السكون على نحو اكمل ، ولكن هذا النوع من الفوضى القصيرة الأجل يمكن أن يقتصر بالاخصاب الذى يتجه نحو النظام .

ومن هنا ، فان ثنائية العشق والتوالد ينبغى ألا ينظر اليها على أنها علاقة بسيطة بين ملة ومعلول ، وتكون الغاية الوحيدة فيها للعشق هى ضمان استمرار الجنس . بل هى فى الواقع تمثل توازنا مزدوجا ، على نسق يتسم بالفوضى والنظام ، وهذا التوازن لا يكفل فقط بقاء النوع ، بل يكفل أيضا بقاء الفرد ذاته . فالعشق ،

اذ يمنح الحياة فرصة للافلات من النظام ، يبعد من خاطره شبح اللحظة المحتومة للموت .

٨ - النوم والأحلام :

عندما يستغرق الانسان فى النوم فإنه يتحرر تماما من التفاعل مع الأفراد الآخرين ، ومن لم يجد نفسه فى حالة مثالية لإعادة بناء شخصيته الخاصة ، امنى نظامه الدائى ، وهذه احدى الخصائص الرئيسية المميزة لهذه الحالة المعجبة .

وكما ان الاخصاب والمثيق يكمل الواحد منهما الآخر ، فان النوم والأحلام وثيقا الارتباط على ما يبدو ، ويمثلان ، على التوالي ، النظام والدخول من طريق الاخلال بالنظام الى عالم أكبر . وهذا النوع من التحرر من ضرورات الشعور يتيح تغلفا أعمق فى عوالم اللاشعور ، ومن ثم فإنه يؤدى أحيانا الى فهم أدق للشفرة الوراثية ، ويؤدى بالتالى الى اتصال أكثر فاعلية بتركيب الكون .

٩ - ظاهرة الدين :

تقوم مشكلة أصول مذهب الألوهية على ما يبدو بدور طبيعى مماثل فى النمط الجديد ، فالإله الذى هو أزل ولانهاى فى آن واحد هو جوهر الكون ، وبشكل بالنسبة للانسان مركزا رائعا للاستقطاب ، اى للنظام الشامل .

ولكننا نجد ، من ناحية أخرى ، ان الجانب المكمل للمشكلة ، الذى لا ينفصل عنها ، امنى به القول بوجود الشيطان ، لا يمثل إلا مطلب الوهى المحدود والمقيد داخل نطاق الزمان . فعلى حين ان التأمل الإلهى يلبي حاجة الفرد الى التركيب الشامل فان الشيطان يبقيه محصورا فى نطاق تحليلى ضيق . ومن هنا ، فان العاطفة الدينية تمثل أحد المظاهر الإيجابية الكبرى للحياة فى مواجهتها للنزعة المضادة . وهكذا ، فإنه لا معنى للقول بأن تأكيد وجود الألوهية إنما هو فقط نتيجة قلق الانسان ، الضائع فى كون لا يفهمه ، تتحكم إليه الصدفة وحدها . فليس هناك ، إذن ، أى مذهب يستطيع ان يتطلع الى إلقاء نزعته بتركيب الانسان ذاته .

١٠ - استنتاجات نهائية :

يتميز النظام النموذجى المقترح هنا بأنه يقدم الأساس اللازم لايجاد مركب -

لبعض الخصائص الأساسية المميزة لعلم النفس . وهو يدمج مظاهر النشاط الحيواني والبشرى الهامة ، المتناقضة ظاهريا ، فى مبدأ عام للتماثل ، يرتبط به طبعا قانون للحفظ يكون فيه مجموع العناصر المتضادة ثابتا . كذلك فإن العالم المادى يعمل أساسا بطريقة مائلة ، ولذلك ينبغى أن لا ندهش من التشابه بين المنهج المتبع فى كلتا الحالتين . فمن المعروف ، مثلا ، أننا لا يمكن أن نولد شحنة كهربائية موجبة دون أن نولد فى نفس الوقت شحنة سالبة مساوية ، وهذه الحقيقة مرتبطة بقانون لحفظ الشحنة الكلية فى الكون .

كذلك فإنه لا يمكن فى الوقت الحاضر حصر أنواع العيوب التى تقوم ، عن طريق التأثير فى التركيب التمولجية لجزيئات الحامض النووى بالتحكم فى لاشعور الفرد . ولكن مقتضيات التنوع غير المحدود لهذه الأنواع تفرض حجبها الهائل على الجزيئات الوراثية ، لأنها أى الجزيئات لابد أن تكون قادرة على خوض عدد كبير من التحولات دون أن تتعرض لكثرة . ومن هنا ، إننا الفرض القائل بأن العيوب التركيبية تلعب دورا أساسيا ، هذا الفرض ، على ما يبدو ، بسيط ومثير للتفكير . ومع ازدياد دقة أساليب الملاحظة فإنه يشبى علينا ، فى السنوات المقبلة ، أن تكون أقادير ، على نحو يزداد باطراد ، على أليات صحة هذه النظرية . وهكذا يصبح اللاشعور فى متناول أساليب فنية أخرى غير أساليب التحليل النفساني .

هذه الملاحظات ، التى تضى على التضامن والتناظر نفس الطبيعة التى تضمنها على الإلهى والشيطاني ، توضح عظمة الموقف الإنسانى ومأساته فى نفس الوقت . ولكن انطباع الجمال الذى تعطيه هذه البساطة يضى علينا شعورا بالسمو . ذلك لأن إقامة علاقة على مستوى كوى بين الجزيئات والشعور لا تنزل الإنسان الى مستوى الآلة ، ومن ثم فإنها تساعد علىقاء الغوء على خلاف ظل قائما منذ أبعد العصور . بل أن الفصل بين الجزيئات والحياة والروح إنما هو فى الواقع تدبير على مستوى رفيع . فالحياة ظاهرة تاريخية أرضية تتميز بسموها الواضح على المستوى الكونى . ولو توغلنا فى أعماقنا لما أمكننا أن نراها ككل . وعلى الرغم من أننا لانزال بعيدين كل البعد عن إدراك هذا الأفق ، إنا من شك فى أننا أصبحنا بفضل طرقنا الحديثة للتحليل على نطاق جريئ ولدى ، فى موقف يسمح لنا بتوقمه ، ويسمح لنا ، أقبل كل شيء ، بأن نتوقع أننا سوف تكون أقادير على التعامل معه على نحو أفضل .

بل أن الأخلاق نفسها يمكن النظر إليها الآن فى ضوء مختلف ، ذلك لأن الإنسان ، أهنى كل انسان على قيد الحياة اليوم ، لا يبلغ من العمر ما تشير إليه سنوات حياته ، فإنه يبلغ من العمر نحو خمسة آلاف مليون سنة . فلأطفال مسنون دون أن يكونوا متقدمين فى السن ، هم كائنات معجزة تضم جيئاتها (حاملات

الصفات الوراثية) كونا مصغرا ، ومن ثم فهم يمثلون العظمة الالهية ، هذه النظرة تضم الحياة الشعورية في موقع الصدارة من الطبيعة ، وبذلك لا يعود الانسان مخلوقا ضعيفا في الكون لانه ، من ناحية ما ، عالم صغير بدائه ، ولهذا السبب فان احترام الحياة ينبغي ان يكون شريعتنا . ولكن كيف يمكننا ان تكفل هذا الاحترام ، وای توازن يمكن ان نجده في هذه النزعات المتناقضة الموجودة داخلنا ، وما الذي سيؤول اليه مصير البشرية ؟ علينا في الواقع ان ندرس هذه المشكلات مستقبلا في سياق الاطار الذي حاولنا ان نحدده ، فهل نحن معرضون لخطر العيش في تدهور حتى تبرد الشمس وتصبح الأرض المتجمدة غير ملائمة للحياة ؟ أم أننا سنقوم ، يوما ما ، بادماج لاشعورنا على نحو اكمل مع شعورنا ، ونصبح كالألهة ؟ وفي هذه اللحظة ان يبلغ تركيبنا درجة من الكمال تنزع معنا الى التحلل التام ؟

ان النظرية القائلة بأن الشعور البشري هو جوهر الكون ذاته ، وهي النظرية التي اقترحها نوريش (١) بدوره ، تؤدي الى شكل كامل من أشكال الوحداية ، يذكرنا الى حد ما ، بالأراء القيمة ، التي قالت بها المدرسة الايلية في اليونان ، منذ ٢٥٠٠ سنة .

وكما كتب يوجين ويجنر (٢) ، فان الفلاسفة الذين لديهم ذخيرة من الانطاف اكبر مما لدى علماء الطبيعة ، يؤمنون بالكلمات اكثر من هؤلاء العلماء . وهذا يعني قطعا ان الفلاسفة قد يكون لديهم اعتقاد واع بأن اللغة انما وجدت للتعبير عن مفاهيم تكمن في الغريزة . أما علماء الطبيعة فانهم ينزعون الى بناء نظرياتهم على اساس مفاهيم اكثر بدائية ، أي ، على وجه التحديد ، المفاهيم التي اشرنا اليها في هذا البحث ، وعلى أية حال فان الوثوق في الكلمات التي لا تعدو ان تكون تعبيرا عن المعلومات المحتواة في الانسان ، يدل اساسا على ان المفاهيم تنبثق مباشرة من اللاشعور .

لنتساءل الآن ان كانت الاراء الحديثة تستطيع ، الى حد ما على الأقل ، ففس النزاع القديم بين مؤيدي الإرادة الحرة ومؤيدي الحتمية المطلقة . يبدو لي ان الإجابة بالإيجاب . فالإرادة الحرة هي تعبير عن الأمر الرجسي الذي تحدده العلاقة بين الشعور واللاشعور في فرد ما ، حيث يكون مجموع هاتين الكلمتين ثابتا تقريبا . ومن الواضح ان هذه الإرادة الحرة يمكن ان تتفاوت داخل فئة واحدة ، ولابد ان نقل الى الصفر عندما تنتقل من الانسان الى الانواع الاكثر بدائية . وهكذا يمكن الجمع بين ثنائية الحتمية والإرادة الحرة دون ان ينطوى ذلك على تناقض .

E.G. Norrish, Journ. Roy. Inst. of Chem. p. 151, 1960

(١)

E. Wigner, Proc. Amer. Phil. Soc., 112, 96, 1960.

(٢)

ولعل من الطريف في النهاية أن نبعث هل يمكن أن نصرف أين تقع الحياة إلى هذه السلسلة اللانهائية من الأحداث التي تؤدي من الجزيئات الحيوية إلى علم النفس . ان انشاق الكائن الحي لا يمكن ، كما رأينا ، فصل أى شيء فيه من سياقه . فهل يمكن اختيار حد فاصل تتجلى بعده الحياة ؟ للإجابة عن هذا السؤال دعنا نبعث بإيجاز شديد ظاهرة تجدد الحياة ، مع التركيز على أهمية التكون العضوى . بغنى خطة البحث الرائعة التي ابتعها « بول بكيرل » (١) في فرنسا ، وفي بحوث « هينتون » (٢) التي أجراها في بريطانيا في وقت أحدث ، وأمكن إبقاء البدور ، والأشبح ، والبويضات ، بل الحشرات ، في حالة حياة كامنة من طريق تجفيفها تماما وحفظها في فراغ في درجات حرارة قريبة من الصفر المطلق ، وهكذا ، فإن وقف الأيض (التحول الفلثي) تماما ووجود تفرجات كبيرة بشكل واضح في التراكيب الخلوية لا يحولان دون تجدد الحياة . وهذا يعنى أن التكون العضوى هو العامل الأساسى اللازم للحياة . ولكن ينبغى علينا بعد ذلك أن نتساءل : في أية مرحلة تبدأ الحياة في الاختفاء ؟ الواقع أن التجارب القائمة على الفئاضلية الخلوية ، التي أجريت في معملى على أشن جفت منذ وقت يرجع أحيانا إلى مائتى سنة ويرجع أحيانا أخرى إلى الوقت الحاضر ، هذه التجارب لم تقدم بعد إجابة على هذا السؤال الأساسى الذى ما يزال موضع دراسة . والواقع أن هذه الطريقة في النظر إلى الأمور تتميز بميزة واضحة ، وهى أنها تشير إلى أن التركيب الفاصل هو التركيب الذى يتيح للأيض إعادة بناء نفسه ، وربما توطيد نفسه ، وذلك إذا ما سمح لنا بالاعتقاد بأن البقاء والحياة لا يمكن تمييزهما عند الحدود الأولى للحياة .

والمأمول أن أكون قد أوضحت على نحو الفضل أن الكونى والعضوى هما في جوهرهما متلازمان ، على النطاق دون الجبرى ، والمجبرى ، وعلى النطاق الكبير . كما أرجو أن أكون قد أوضحت أن الكون ، بما فيه من ميل إلى التركيب والبناء ، يتركز حول الحياة إلى حد ما (٣) .

Paul Becquerel, Comptes rendus, Paris, 231, 261, 1960.

H.E. Hinton, Proc. Roy. Soc. B., 171, 43, 1968.

H. Kahane, «La vie n'existe pas» Paris, Les Éditions de l'Union Rationaliste, 1962 ; I. Prigogine, «Structure, Dissipation and Life» in «Theoretical Physics and Biology», Ed. M. Marois, Amsterdam, North Holland Publishing Co., 1969.

(١)

(٢)

(٣)

الكتاب : جيسول دوشمسين

- ولد ببلجيكا عام ١٩١١
- دكتور في العلوم ، وأستاذ بكلية العلوم بجامعة لييج ،
ورئيس قسم الفيزياء الذرية والجزيئية بها .
- نائب رئيس قسم العلوم باكاديمية بلجيكا الملكية ،
ورئيس الجمعية البلجيكية للفيزياء الحيوية .
- مؤلفاته : ٢٠٠ بحث في مجالات الكيمياء التركيبية ،
الفيزياء الجزيئية ، فيزياء الجوامد ، الكيمياء الكونية ،
الفيزياء الحيوية .
- كما أدرج على نشر عدة مؤلفات أخرى .

الترجم : الأستاذ زكريا فهمي

- يكالوريوس علوم ، مشغل بالبحث العلمي
- اشترك في ترجمة كتاب تاريخ البشرية ، التطور
العلمي والطاقي في القرون العشرين .
- له كثير من الأبحاث في المجلات العلمية

تَبَيَّنَ

المقال وكاتبه	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	رقم العدد وتاريخه
المعارف والطوبى فى حوض البحر الابيض المتوسط بقلم : فرنسيسكو جابريلى	Knowledge And Attachments In the Mediterranean by Francesco Gabrieli	العدد : ٧١ خريف : ١٩٧٠
السياسة الطمعية ولساطيرها بقلم : جين جاك سالومون	Science Policy And Its Myths by Jean-Jacques Salomon	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠
المرأة المعظمة بقلم : راسل ارجمان	Le Miroir En Miettes by Raoul Argman	العدد : ٦٨ عام : ١٩٧٠
العمل والمثاقير والغدوة الضربة على الزمان بقلم : فريد كالورين	Of Work, Drugs And Revolution The Revolt Against Time by Fred Caloren	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠
من الجزئيات الحيوية الى علم النفس بقلم : جرجل دوشين	From Biomechanics To Psychology by Jules Duchesne	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مجلة دولية تصدرها هيئة اليونسكو الدولية ،
لتوفر من الدراسات الاجتماعية ما هو ضروري ولتأزم
لتنظيم المجتمعات وتعمق مشكلات العصر ، والوصول
الى حلول تواجه المستقبل .

تصدرها أربع مرات في السنة :

يناير - أبريل - يوليو - أكتوبر

صدر العدد الأول يوم الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٧٠ ، وصدر
العدد الثاني يوم الثلاثاء ٥ يناير ١٩٧١ ، والثالث
أبريل ١٩٧١ ، بسعر أقل من التكلفة .

عشرة قروش او مايعادلها .

الإشتراك ٤٠ قرشا ، خلاف مصاريف البريد .

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو .
ومركز مطبوعات اليونسكو .

الاشتراك

في المجلات الدورية الجديدة ومجلة "رسالة اليونسكو"

تصدر المجلات التالية على التوالي ، عن مجلة رسالة
اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو ، وبناف العمد منها
بشرة اقوش ، وهو سعر يقل عن تكلفة كل عدد ، تمكينا
للقراف العرب ولجمهور الدارسين من الحصول عليه :

● الملة الدولية للمعلوم الاجتماعية
يناير - ابريل - يوليه - اكتوبر

● مجلة اليونسكو للمكتبات
فبراير - مايو - افسطس - نوفمبر

● العلم والمجتمع
مارس - يونيه - سبتمبر - ديسمبر

● نيوجين
فبراير - مايو - افسطس - نوفمبر

وتصدر مجلة رسالة اليونسكو شهرياً

وبإيجار باريسية قروش ، بسعر يكال من تكلفة كل عدد
والضمان المصموم على هذه الأعداد بانتظام يمكن للهيئات
والمعاهد العلمية والأفراد الاشتراك في كل منها باريسية قروشاً
في العام ، عند مصروفات البريد •

والاشتراك الكامل لكل هذه المجلات هو ١٩٠ قرشاً في

العام ، بخلاف اجرة للبريد •

مجلة رسالة اليونسكو

المجلة الشهرية التي تصدرها هيئة اليونسكو بباريس باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وترجم إلى عشر لغات أخرى من لغات العالم ، ويتناولها ملايين القراء بمختلف اللغات .

تدرس المحاضرات القيمة ، وتقدمها للأجيال بكل ما فيها من قيم ، في محاولة جادة للربط بين الوجدان العام برباط من الاحترام والتقدير لكل حضارة ، ولإبناؤها من الأجيال التي تعاقبت عليها ، ليسود الفهم بين الناس ، مما يؤدي إلى التفاهم واستقرار السلام .

« رسالة اليونسكو » لا تلقف عند القديم ، ولكنها تبسط العلم الحديث ، وتضعه في صيغة تكون في متناول كل المستويات ، وذلك لتشر العلم ورفع مستوى الحياة واستقرار السلام على أساس من الاطمئنان والاقتناع بالعمل الدولي .

صدرت الطبعة العربية منها منذ عشر سنوات ، وقد دعمت بصفحات ملونة تطبع في باريس ، وتقدمها هيئة اليونسكو هدية إلى الطبعة العربية .

يصدر العدد الجديد في مايو ١٩٧١
تصدر الطبعة العربية شهريا و تباع بـ ٤ قروش

مجلة العلم والمجتمع

المجلة الدولية التي تتخطى مشكلات الساعة الى مشكلات الغد *
وتتناول فيما تتناوله من الامور : تطورات العلم العائلة ، وكيف
تتأثر الحياة بهذه التطورات الى الحد الذي سيجعل من حياة هذا
الجيل ، مشهداً من المشاهد المتخفية في نظر الجيل القادم *

وفي مثل هذا التطور العائل ، تحتم الضرورة على كل انسان
أن يتابع هذا التطور ، ليحدد موقفه من الحياة ، وموقفه من الاجيال
التي تتسلم منه امالة الحياة *

ان تفكير ابناء الغد ، سيكون صورة لهذه التطورات العائلة
والسرعة في مجال العلم ، ومن الخير لابناء هذا الجيل ان يتركوا
هذه الحقيقة ليقيموا صلتهم بالشباب على اساس سليم *

ومجلة العلم والمجتمع التي تصدرها هيئة اليونسكو الدولية ،
تصدر بالعربية للمرة الاولى ، في شهر :

مارس - يولييه - سبتمبر - ديسمبر *

للتناول كل هذه الامور باقلام خبراء عالميين ، وباختيار خبراء
عرب متخصصين ، صدر العدد الثاني في مارس سنة ١٩٧١

تصدر في قرابة مائة صفحة ، بعشرة قروش *

الاشتراك السنوي اربعون قرشاً غير مصروفات البريد

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو

مجلة اليونسكو للمكتبات

اول طبعة عربية من المجلة الدولية التي تصدرها هيئة اليونسكو
عن المكتبات ، والخدمة المكتبية ، والعناية بشؤون الكتاب •

تصدر اربع مرات في السنة في الخامس من شهور :

فبراير - مايو - اغسطس - نوفمبر

حيث يتناول خبراء الكتب والمكتبات في العالم شؤون المكتبات
والخدمة المكتبية وتيسير القراءة لكل الاعمار والمستويات •

صدر العدد الاول في نوفمبر ١٩٧٠

وسدر العدد الثاني في فبراير ١٩٧١

ويصدر العدد الثالث في مايو ١٩٧١

في قرابة مائة صفحة بـ ١٠ قروش

الاشتراك السنوي اربعون قرشا غير مصروفات البريد •

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو

الثن ١٠ قروش

مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو

تقدم مجموعة من المجلات التولية بالسلام كتاب
متخصصين وأسئلة فادحة
وتقوم باختيارها ونقلها إلى العربية نخبه ممتازة من
الإبائلة العرب
لتصبح رسالة إلى الكتبة العربية تساهم في الرأ
الفكر العربي . وتمكنه من حلاقة البحث في قضايا
العصر

مجلة رسالة اليونسكو

تصدر شهريا

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

يناير - أبريل - يوليو - أكتوبر

مجلة اليونسكو للمكتبات

يناير - مايو - أغسطس - نوفمبر

العلم والمجتمع

مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر

مجلة (ديوجين)

فبراير - مايو - أغسطس - نوفمبر

مجموعة من المجلات الخاصة . تصدرها مجلة اليونسكو
بالتعاون مع
الجمعية الدولية . ويصدرها طبعاتها العربية بالاشتراك مع
الجمعية الدولية لليونسكو . ويصدرها الطبعة العربية
الجمعية الدولية لليونسكو . ويصدرها الطبعة العربية